

سلسلة
التصوف

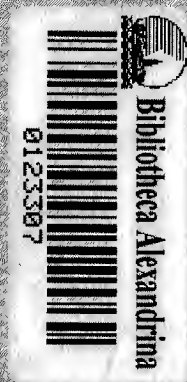
بداية الهداية

للإمام الغزالي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

مكتبة مدبولي
القاهرة



بداية الهداية

للإمام الغزالي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

مكتبة مديبولي

القاهرة

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة تلفون : ٧٥٦٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله صاحب دعوة الحق محمد بن عبد الله ومعجزة التاريخ والمنازة التي يهتدى بها الإنسان كلما انبهت الأمور وعلى آله وصحبه وبعد.

كانت العقيدة الإسلامية من بين العقائد الموروثة وهي التي تفرق بين شيئين متكاملين وهما الظاهر والباطن والمقصود بهما الشريعة وهي الباب الذي يدخل منه الجميع والحقيقة والتي لا يصلها إلا المصطفين الأخيار وهذه التفرقة ليست تحكيمية، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة.

وكثيراً ما تجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب أو بالدائرة ومركزها.

ويقول الدكتور المرحوم فضيلة الشيخ عبد الحلیم محمود في كتابه مقدمة في منطق التصوف: والشريعة تتضمن - فضلاً عن الناحية الاعتقادية - الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية وهما جزآن لا يتجزآن عن الدين الإسلامي: إنها أولاً وقبل كل شيء قاعدة للسلوك. أما الحقيقة فأنها معرفة محضة، بيد أن الباطن لا يعنى فقط الحقيقة وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها أعنى الطرق التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة.

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية الدائرة ومركزها قلنا إن الطريقة هي الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز، وكل نقطة على الدائرة هي مبدأ الخط. وهذه الخطوط التي لا تحصى، تنتهي - كلها - إلى المركز. إنها الطرق وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية ولهذا يقال الطرق إلى الله كنفس بنى آدم، ومهما اختلفت فالهدف واحد: لأنه لا يوجد إلا مركز واحد وإلا حقيقة واحدة. على أن هذه الاختلافات

الموجودة فى المبدأ تزول شيئاً فشيئاً من زوال الإثنية وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا تزول فيها صفات العبد التى ليست إلا سجتاً الفناء فلا يبقى إلا الصفات الربانية البقاء.

والطريقة والحقيقة مجتمعان يطلق عليهما التصوف وهو ليس مذهباً خاصاً لأنه الحقيقة المطلقة، وليست الطرق مدارس مختلفة لأنها طرق أى سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة: التوحيد واحد.

ومن الثابت علمياً أنه لا يمكن لأى فرد أن يمنح نفسه اسم صوفى اللهم إلا أصابه المرض أو الجهل، فالصوفى هو الذى يصل إلى درجات عليا بينه وبين ربه.

ويشرح لنا الدكتور عبد الحليم محمود عن أصل كلمة صوفى فيقول: فقد اختلف فيه إختلاف كبير ووضعت فروض متعددة وليس بعضها بأولى من بعض، وكلها غير مقبولة. إنها فى الحقيقة تسمية رمزية وإذا أردنا تفسيرها ينبغي علينا أن نرجع إلى القمة العددية لحروفها. وإنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف صوفى تماثل القيمة العددية لحروف كلمة الإلهية فيكون الصوفى الحقيقى إذا هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية إنه «العارف بالله» إذ أن الله لا يعرف إلا به، وتلك هى الدرجة العظمى «الكلية» فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة.

خلاصة القول أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فالصق بالإسلام وإنما هى بالعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين، لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى يونانى أو هندى أو فارسى وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً.

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض الاستعارة، وذلك إنه ماداً من الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور.

ويجب أن لا نعطى عناية كبيرة - حينما نتحدث عن أصل التصوف - لتلك

المناقشات التى لاتنتهى بين مؤرخى التصوف خاصة بتحديد الفترة الزمنية التى وجدت فيها لفضه صوفى. فإن الشئ قد يوجد قبل اسمه الخاص سواء وجد تحت اسم آخر أو وجد، ولم تكن هناك الحاجة لتسميته.

ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو التأثير الروحى أو ما نطلق عليه البركة وهى لاتتأتى إلا بواسطة شيخ، ومن هنا كانت الطرق ومن هنا كانت السلسلة.

وهناك خطوات من أجل أن يسير الإنسان فى طريق التصوف:

١- استعداد نظرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب.

٢- الإنتساب إلى سلسلة صحيحة إذ أن البركة التى تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة شرط أساسى لا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها.

٣- ثم يأخذ المتصوف الطيب الفطرة الذى باركه شيخه فى الجهاد الأكبر: التأمل الروحى وفى الذكر: أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع، وفى تركيز الذهن وفى الملأ الأعلى فيصل موقفا من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلى الدرجات وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا: ذلك هو الصوفى الحقيقى.

من أسباب التصوف الشك

يعرف كثير من الناس التصوف بأنه المذهب القائل بالألهام والبصرة أو اذا شئت فبالعلم الألهى: أى بهذا النوع من المعرفة اليقينية الذى لا يتصور فيه الشك ولا تبعث به السفسطة، ولئن كان هذا التعريف غير منطبق تماما على حقيقة التصوف، فانه، لاريب، يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية: فتصفية الروح ليست غرضا من أغراض الصوفية إلا لأنها تمهد للاتصال بالله، ولتلقى المعرفة عنه. ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق الألهام أو اذا شئت، فعن طريق الألوهية هى معرفة لا يتطرق إليها الهدم، ولا تنهار أمام حجج المنطق بل أن هذه الآراء الغريبة التى تجدها أحيانا فى كلام الصوفية

هى فى نظرهم لاتقل فى ثبوتها عن البديهيات. وأنت تحاول عبثاً إذا أردت أن تبث الشك فى نفس الصوفى أو أن تحوله عن رأيه، اذ كيف يحيد عن فكرة يعتقد أنه تلقاها عن الملائ الأعلى، فى فترة صفت فيها روحه وتطهرت؟ وكيف يكون على باطل وهو يعمل وفق ارادة وتعاليم عليا سامية على العكس من ذلك تماما نرى الشاك: فهو شخص لايعترف بحقيقة، أو لا يعترف بأن هناك طريقا يوصلنا إلى معرفتها على فرض وجودها. وعبثا تحاول أن تقنعه بعقيدة ما إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ولا يرضى عن رأيه بديلا. وأن يدهش لشيء فأنا يدهش لعدم اقتناعك أنت بفكرته فى الشك التي يعطيك على صحتها البرهان تلو البرهان والحجة تلو الحجة حتى لتعترف «فى النهاية» بأن رأيه له وجاهته وله قيمته.

يقين مطلق من جانب، وشك عميق من جانب آخر، اختلاف شاسع بل تعارض وتضاد.

رغم ذلك وبالرغم من أن محاولة التقريب، وعقد الصلة بن هذين المذهبين تبدو لكثير من الناس غريبة، فإننى اعتقد أن الخلاف بينهما أقل مما نتصور: ذلك أن الصوفى والشاك يتفقان فى المبدأ الذى بنى عليه كل منهما اتجاهه. أريد أن أقول: إن الفكرة التي حدث بالصوفى إلى التصوف هى نفس الفكرة التي أدت بالشاك إلى رأيه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فأن الشك نفسه كثيراً ما يؤدي إلى التصوف.

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة: - هما الحواس والعقل. فمعرفةتى بالشئ تنتج عن أنى أراه وأحسه أو أنى أستنتجه بدليل عقلى.

كثير من الناس بل الأغلبية الساحقة منهم تأخذ المعرفة الناشئة عن هذين الطريقين قضية مسلمة لاتقبل جدلا، ولا يحيط بها شك. ولكن فى العالم أيضاً ذلك الشخص الذى يرى أنه مادامت الحواس تخطى فهو ليست أهلا للثقة: أنى أرى السراب فأحسبه ماء، وتسيطر على فكرى صورة من الصور وتقوى هذه السيطرة فأرى الصورة ممثلة أمامى، والمريض يرى خيالات لا حقيقة لها، والخائف يرى أشباحاً ويسمع أصواتاً

لاوجود لها. أن الأمثلة على ذلك لا تحصى وكل يوم، بل كل فترة تعطيني دليلاً على خطأ الحواس. فهل بعد هذا أثق بمعرفة تأتي عن طريقها؟ كلا.

بقى العقل. ولكن ما قيمته؟ كل ينتسب إليه ومع ذلك فلا تجد اثنين على اتفاق تام. أن هذه المذاهب الفلسفية التي لا تكاد تعد، كلها مبنية على العقل وكلها مؤسسة عليه وقائمة به، وكلها جذابة أخاذة تغرى بقوة أدلتها وتستولى عليك بصرامة منطقها، ومع ذلك فلا تكاد تتفق فى شئ ما ثم ماذا؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلى منطقى على أن الأترب لا يلحق بالسلحفاء، مهما أسرع فى العدو إذا بدأت السلحفاء قبله وسبقته بتمر أو مترين؟ ألم يبرهن أحدهم على أن السهم فى سيره لا يتحرك وأنت نفسك أليست أراؤك فى حالة التخمّة غيرها فى حالة أخرى، وفى حالة السرور غيرها فى حالة الحزن، ثم البراهين التى ترى قوتها وتعتقد فيها فى حالة الحلم ليست أقل من أن يقال عنها أنها براهين عقلية.. وهكذا إذا أخذت فى تعداد الأمثلة على عدم مقدرة العقل فانك لا تقف عند حد.

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها. وأخطأ العقل فلا ثقة به. فهل معنى ذلك أن لا سبيل إلى معرفة الحقيقة؟ نعم، يجيبنا الشاك، وسنمكث إلى الأبد محكوماً علينا بالجهل أو إذا شئت بعدم المعرفة الصحيحة.

ولكن الصوفى بعد أن سار هذه الخطوات، ووصل إلى الشك فى قيمة الحواس والعقل، وفى قيمة المعرفة الناشئة عنهما، يعود فيثبت المعرفة عن طريق آخر: هو الألهام أو البصيرة أو العلم اللدنى كما يقولون.

قطع الصوفى والشاك المرحلة الأولى إذاً معاً: فوصلا إلى الشك فرضى به أحدهما، واقتنع بأن لا مطمع وراءه، وخطا الآخر خطوة أخرى. خطاها لا يوضع لنفسه منطقاً أو منهجاً يسير عليه ليعتصم من الزلل الذى توقعه فيه حواسه ويوقعه فيه عقله، كما يفعل الفلاسفة، وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر لا يتسرب إليه الشك.

لنلقى الآن نظرة على النفس الإنسانية فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك، ولا ترغب فى إتخاذ الأتكار مذهباً وقاعدة. وأنها على كثرة حب المعرفة وشغفها بالاستطلاع، تريد دائماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها وأعمالها، ونرى أيضاً أن من أشق أوقات الإنسان تلك الفترات التى تضطرب فيها نفسه، وتتذبذب آراؤه. ويختلط عليه الأمر. هذه الحالة تبعث فى النفس الضيق والكآبة فإذا اشتدت واستعمرت سببت أحيا الانتحار، وأحياناً الجنون، ولكنها أيضاً فى كثير من الأحيان تؤدي إلى التصوف. نعم ، تؤدي إلى التصوف، حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه، وتهدأ وتسكن، حيث يجد اليقين، والإيمان، والعلم الثابت.

لقد كان الحارث بن أسد المحاسبي متعطشاً إلى المعرفة، والبحث، والاطلاع وإلى الوصول لرأى لا يعثوره الشك، إلى رأى يقينى ثابت لا يتزلزل ولكنه بعد أن بحث زاد شكاً بدل أن يزيد إيماناً، واضطربت نفسه وخشى أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتمص بهبل الله المستقيم: فكذ وجد ثم يش من أن يصل إلى النتيجة، ولكن الله وفقه فى النهاية إلى الإتصل بقوم صالحين فسكن إليهم وأخلد. سكن إليهم وأخلد لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين، ولا لأن براهينهم بعثت فى نفسه الاطمئنان وإنما سببهم على وجوههم تبعث الثقة وتهدي إلى الرشاد.

لندع المحاسبي نفسه يصور حالته والنص الذى نثبته الآن من مخطوط له بدار الكتب المصرية لم يطبع بعلم اسمه «النصائح». وقد تعددت اثبات هذا النص كاملاً لما بينه وبين كلام الغزالي فى كتابه «المنقذ من الضلال» من شبه يهم كل باحث فى التصوف معرفته.

قال المحاسبي بعد مقدمة بسيطة «أما بعد» فقد إنتهى إلينا أن هذه الأمة تفرق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرهما. فلم أزل برهة من عمرى أنظر إختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء، وتدبرت أحوال الأمة ونظرت فى مداهبها، وأقاويلها، فعلقنت من ذلك

ما قدر لى، ورأيت إختلافهم بحرأ عميقاً قد غرق فيه ناس كثير، وسلم منه من خالفهم، ثم رأيت الناس أصنافاً؛ فمنهم العالم بأمر الآخرة، ولقاؤه عسير ووجوده عزيز؛ ومنهم الجاهل، فالبعد غنيمة؛ ومنهم المنشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه، مؤثر لها؛ ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتصق بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا؛ ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل؛ ومنهم متشبه بالنسك، متجر بالخير، لأغناء عنده، ولا بقاء لعلمه، ولا معتمد على رأيه؛ ومنهم منسوب إلى العقل والدعاء، مفقود الورع والتقوى ومنهم متوادون على الهوى يتفقون، وللدنيا يتباذلون ورياستها يطلبون؛ ومنهم شياطين الأنس عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفى الأستكثار منها يرغبون، فهم فى الدنيا أحياء وعن العرف موتى بل العرق عندهم منكر والسوء معروف.

فتفتقدت فى الأصناف نفسى، وضقت بذلك ذرعاً، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وطلت إرشادهم النظر، فتبين لى فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه وأجماع الأمة أن أتباع الهوى لا يرجون يعنى عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث فى العمى، فبدأت بالصبر على بأسقاط الهوى عن قلبى، ووقفت عند إختلاف الأمة منرتاداً لطلب الفرقة يحببون الله الناجية حرراً من الأهواء المردية والفرقة الهالكة متحذراً من الاقتحام الإنابة إلى قبل البيان، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى، ثم وجدت باجتماع الأمة فى فقهاء كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله وأداء فرائضه والورع تاركين التعس فى حلاله وحرامه وجميع حدوده والأخلاص لله تعالى بطاعته والتأسى والظلم والأقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء والآثار، ورعين فى فرأيت اجتماعاً وإختلافاً، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض للمشهورات والسنن عند العلماء بالله، وأن الفقهاء عن الله العاملين برضوانه الورعين عن الحلال، محارمه المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم المؤثرين الآخرة على الدنيا: أولئك على أنفسهم المتسكون بأمر الله وسانن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف، المجتمع عليهم، والموصوفين، الحزن الدائم اقفر

آثارهم وأقتبس من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم وصفوا للآدأ مندرساً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً وعلمت أن آدأه كما بدأ فطوبى للغريباء، وهم المنفردون بعلمهم، فعضمت مصيبتى بفقد الأدلاء ولا يقوم بحد الأتقياء، وخشيت بغة الموت أن يفجأنى، على اضطراب من عمرى، العاملون بطريق لاختلاف الأمقو فانكمشت فى طلبى عالماً لم أجد لى من معرفته بدأ، لم أقصر بهم، والهادو فى الاحتياط، ولم أن فى النصع، فقيض لى الرعوف بعباده قوما وجدت فوائدهم، قابلاً فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت أبدأ، ففتح إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعلى أئمة الهدى: مجتمعين على نصع الأمة لا يرجون أبدأ فى معصيته، ولا يقنطون أبدأ من رحمته، يرضون أبدأ بالصبر على البأس والضراء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء، يحبون الله تعالى إلى العباد بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة الى الله تعالى علماً بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته وعلماً بكتابه وسنته.

فقهاء فى دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين التعمق والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء متورعين عن الإغتياب والظلم والأذى، مخالفين لأهوائهم محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم ورعين فى مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم، مجانين للشبهات، تاركين للشهوات، متجرئين باليلفة من الأقوات، متقللين من المباح، زاهدين فى الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، مشغولين ببشهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل أمرئ منهم شأن يغنيه. علماء بأمر الآخرة، وأهاويل القيامة، وجزيل الثواب، أليم العقاب، ذلك أورثهم الحزن الدائم، وألهم المضنى، فشقوا عن سرور الدنيا ونعيمها، ولقد وصفوا للآداب صفات، وحددوا للورع حدوداً، ضاق لها صدرى، وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع بحر لا ينجو من الفرق فيه شبهى ولا يقوم بحدوده مثلى: فتبين لى فضلهم، واتضح لى نصحهم، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والتأسون بالمرسلين، المصابيح لمن استعنا بهم والهادون لمن استرشدهم، فأصبحت راغباً فى مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم؛ لا أعدل بهم شيئاً ولا أؤثر عليهم أبدأ، ففتح الله لى علماً انفتح لى

برهانه، وأتار لى فضله، ورجوت النجاة لمن أقره أو انتحلته، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الأعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحد، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على واعتقدته في سريرتى، وانطويت عليه بضميرى، وجعلته أساس دينى، وبنيت عليه أعمالى، وتقلبت فيه بأحوالى، وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على، وأن يقوينى على التيام بحدود ما عرفنى به، ومع معرفتى بتقصيرى فى ذلك وإنى أدرك شكره أبداً، إنتهى كلام المحاسبى.

وليس المحاسبى بدعاً فى ذلك وإنما يتفق معه الإمام الغزالى. بل الإمام الغزالى أوضح وأدق.

حاول أن تتصور معنى بالضبط حالة الإمام الغزالى النفسية فستجده متلهفاً على المعرفة، محباً للاطلاع والدرس والبحث، غارقاً فى محيط الفلسفة والعلم، ولكنه مع كثرة إطلاعه وتنقيبه لم يجد فى المذاهب الفلسفية ما يرضيه، ولم يجد فى الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه ورأى أن من العبث أن يبدأ فى تأليف مذهب فلسفى جديد إذ مصير ذلك حتماً مصير ماسبق من المذاهب التى إن أخذت بألباب كثير من الناس، فإنها لاتثبت أما النقد الصارم، والتى تبعث التفرقة، إذ ليس فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع.

ليس هناك إلا الشك إذاً.

وفى الواقع لقد شك الإمام الغزالى..، شك فى الخواص وشك فى العقل وشك فى ما ينتج عنهما من معرفة، ولكن نفسه اضطربت ونحل جسمه وضاق بالحياة ذرعاً ولم يجد ملجأ ولا عاصماً من هذه الحيرة وهذا الاضطراب إلا التصوف، فولج بابه، واطمأن إليه. وكتابه المنقذ من الضلال الذى يقص فيه تطوره الفكرى يصور هذا خير تصوير.

وكما يبدأ المحاسبى بحديث «ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة» كذلك يبدأ الغزالى بهذا الحديث، وتكاد بعض جملة تكون مأخوذة من كلام المحاسبى نفسه: مما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر أن الغزالى فى كتابته الكتاب هذا تأثر

بالمحاسبى فى كتابته لمقدمة كتاب «النصائح».

وسواء كان هذا صحيحاً أو غير صحيح، فما لا شك فيه أن الإمام الغزالى قرأ هذا الكتاب إذ أنه استشهد ببعضه فى الأحياء، والذى يعنينا الآن هو أن الإمام الغزالى، كما يصور فى كتابه، بدأ يشعر بعدم الاطمئنان حينما فكر فى هذا الحديث الشريف، حينما رأى أن إختلاف الخلق فى الأديان والملل ثم إختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطوق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجى وكل حزب بالمديهم فرحون. لهذا أخذ الإمام الغزالى فى البحث جهد طاقته ليصل إلى اليقين «الذى ينكشف فيه المعلوم إنكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، ثم يقول وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين. فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى». ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسابات والضروريات، ولكن انتهى بى طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً. ثم أخذ الإمام الغزالى يذكر أسباب شكه فى المحسوسات وفى الضروريات وفى العقليات وقد ذكرنا طرفاً منه آنفاً.

واستمر الإمام على تلك الحالة «حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل أو ترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الزدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن «الشرح» ومعناه فى قوله تعالى «فمن برد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» فقال «هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب فقليل وما علامته؟ فقال: الشجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود» وهو الذى قال عليه السلام فيه: «إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره» فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحيان، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام: إن لربكم

فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها».

هذا الشك الذى حدا بالغزالى إلى التصوف، كما حدا بالمحاسبى قبله، هو شك أتى من البحث وراء الحقيقة.

ولكننا لانريد أن نقول إن هذا النمط من الشك، هو وحده، أساس التصوف وإنما نريد أن نقول أن أساس التصوف هو الشك على الإطلاق: سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية أو بالناحية الاجتماعية أو بالناحية الوجدانية، فهذا الشخص الذى صدم فى عاطفة من عواطفه، وكثيراً ما تكون عاطفة الحب تلك العاطفة القوية الجامحة التى تهز النفس هزاً والتي تؤدى كثيراً إلى الانتحار، هذا الشخص الذى صدم فى تلك الناحية قد تصل به الصدمة إلى الشك فى كل شخص، أو إلى الشك فى أن يجد مثاله الأعلى فى هذه الحياة فيتجه إلى حياة العزلة والانفراد، أو يعتكف فى مسجد أو فى بيته، عابداً مصلياً طالباً من الله أن يكون عماده، وأن يكون ملجأه، وأن يصرف عنه السوء.

وهذا الشخص الرقيق المزاج الذى يرى فى كل أونه ظلم الناس وفساد الحياة، والذى لا يجد فى نفسه القوة على الحجلاد والصراع، والذى يصل به الأمر فى النهاية إلى الشك فى المجتمع وفى أهله، فيضيق بالحياة ذرعاً، لا يجد مفرأ من أن يعتكف متأملاً مفكراً فى مثل عليا أو فى حياة أخرى أو فى ملا أعلام صفت فيه النفوس وتطهرت وسمت عن كل دنس.

وهكذا إذا بحثنا فى حياة هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الصوفية فأننا نجد دائماً نقطة الارتكاز: الشك.

الشك ومدارج السالكين

ولكن تلك الحياة التى يتجهون إليها، تلك الحياة الجديدة التى أخذت من النفوس كل مأخذ، والتى اتجهوا إليها فى تحمس وحرارة، ولاتزال من أنفسهم الشك بجميع

ألوانه. حقيقة أنها تزيل من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية الشك في تلك الناحية، وتنسى الآخرين الشك الذي دفعهم إلى حياة التصوف دفعا؛ ولكن التي تنجها إلى الحياة الدينية في حرارة وتحمس ألما تنجها نحو الكمال من الناحية الدينية، وهذا الكمال أول ما يبدأ يبدأ بالتوبة، ومن المعقول المنطوق أن ذلك الشخص الذي اتجه في تحمس إلى الناحية الدينية يرى في ماضيه كثيراً من الأخطاء فلا تهدأ نفسه ولا تستقر إلا إذا خضع لله ساجداً مستغفراً لنفسه طالباً من الله الصفح والرضاء ولكنه لا يكاد يتخطى تلك الفترة إلا ويعترضه الشك في كثير مما يتصل بحياته العادية اليومية ويكاد يتساءل في كل لحظة أهذا حلال أم حرام، طيب أم خبيث، حسن أم قبيح، ويرضى الله أو لا يرضيه ويتحرج في المأكل والمشرب والملبس، وهذا هو، الورع، وسببه كما ترى الشك. ولكنه مهما تحرج في مأكله ومشربه وملبسه، ومهما تحفظ واحتاط، فإنه سيجد دائماً أن ذلك لا يكفي ويشك في كل لحظة وآونة ويندم على ما فات، وتقوى في نفسه الحرارة الدينية فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا، وأن هو لا لهو ولعب وضلال وباطل وأن خير طريق إن أراد الهداية أو الرشد، إن هو إلا الزهد في تلك الحياة التي لا تسارى عند الله جناح بعوضة.

توبة ثم ورع ثم زهد، تلك هي بالتتابع بعض ما يسميه الصوفية مقاماتهم ولكن الكمال كما قلنا ليس له من غاية أو من حد، نعم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة ولكن أهذا هو المطلوب؟ أنه إنسان وطبيعته الحيوانية مهما قويت إرادته تجذبه إلى الحياة الدنيا، وترغبه فيها، وتبعث فيه السخط على حياته، ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح، كما صوره أناتول فرانس في رواية تاييس تصويراً بديعاً وصوره المحاسب في كتابه «بدء من أناب الله» وفي كتاب «الرعاية» تصويراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة.

هذا الصراع يبعث في نفس الصوفى اضطراباً لا مزيد عليه بل يبدأ الصوفى يشك في نفسه، وفي قيمته الذاتية، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد في تخلي المعرنة أو التوفيق الإلهي عنه لأنه ليس أهلاً لهما، ولجده في تلك الآونة يبيكى، ويتألم، ويضرع إلى الله أن يمنحه معونته، وأن يصفح عنه إذا كان قد أخطأ بدون علم منه، ويعترف

بأن لاقيمة له فى الواقع أمام تلك القدرة العظيمة، وكل مايرجوه أو يأمله أن يكون عبداً وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته أو توفيقه أو رضاه. يستمر صاحبنا ؛ذلك فترة من جهامها وتهدى من ثورتها حتى يصل إلى الرضى، وهذا هو المقام الرابع وهو أرقى بدون شك من الزهد، ولكن أذلك هو الكمال؟

لم يقل الصوفى ولا يمكن أن يقول أن معنى الرضى هنا انقطاع كل الرغبات والشهوات أو زوال الآمال والطموح، كلا، إنما معناه أن تلك الثورة التى كادت تودى بصاحبنا وتجعله يعود إلى حياته الأولى هدأت، وانتصرت عليها النحية الروحية. وليس السبب فى هذا حسب رأيه قوة ارادة أو ذاتية وأما ذلك توفيق من اله، تلك معونة منه، وأراد به خيراً، أراد به الهداية والرشد، فماذا يستحق ذلك الخالق الذى أعانه من غير أن يكون فى حاجة اليه والذى هداه من غير أن يكون فى تلك الهداية نفع للخالق جل وعلا. أنه اذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً كان مقصراً، وليس كل التقصير فى مرتبة واحدة فذلك تقصير فى حق الإله الذى منح الحياة، والذى أفاض النعم، والذي غمره باطمئنان النفس، وانتشله من الضلال، ورفعته إلى مكانة منحه فيها معونته. ويبدأ الشك فى خلجات نفسه وفيما يبدو من دقائق الرياء ثم ينتهى إلى الانصراف المطلق - فى حدود الامكان - إلى تلك الذات العليا الكاملة، ولكن هذه الذات مهما فكر فيها وتأمل، يجد دائماً فى نفسه الرهبة منها فيزيده ذلك انصرافاً اليها ويجهد نفسه فى ذلك الانصراف إلى الله حتى اذا استمر فى ذلك منحه الله من فيضه وتحولت الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب عميق ثم إلى رؤية الله فى كل ناحية وفى كل جانب أو فى كل مكان ثم إلى الفناء فى تلك القوة التى أخذت عليه سمعه وبصره فأعلن أو أسر «مافى الجبة غير الله».

أما بعد فأنى لا أعتقد أنى ابتعدت كثيراً، فى كل ما سبق عن النص الآتى بل أعتقد أن كثيراً مما سبق لم يكن إلا شرحاً له، والنص للسهورردى ذكره فى كتابه عوارف المعارف فى نهاية الفصل المعنون: ماهية التصوف.

قال السهورردى - وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول ويطول نقلها ونذكر ضابطاً يجمع حل معانيها فأنا الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعانى فنقول:

الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية، لايزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس. ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فيداوم الافتقار ينقى من الكدر وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصرته النفذة، وفر منها إلى ربه، فيداوم تصفيته جمعيته وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه وقال الله تعالى «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط» وهذه القوامية لله على النفس هى التحقق بالتصوف. قال بعضهم التصوف كله اضطراب فإذا وقع السكون فلا تصوف. والسرفيه: أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الألهية، يعنى أن روح الصوفى منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها ولابد للصوفى من دوام الحركة بدوام الأفتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس. ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جميع المنفرق فى الاشارات.

التصوف والدين الإسلامى

للتصوف صلة بالدين؟ الواقع أن الإنسان يصعب عليه أن يتصور صوفياً لا يؤمن بالله واليوم الآخر. ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية وغايته دائماً - حسب مانعلم- روحية: رضا الملاء الأعلى، حب الله، الإتصال به، الفناء فيه. أو الاتحاد بذاته العليا، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها أو إلى بعضها الصوفى. لذلك لا يمكننا أن نتصور شخصاً ليس بمؤمن يسعى إليها، وكل ما يمكننا أن نتصوره وإن كان فيه شئ من الغرابة هو تصوف الرجل الذى لا يؤمن إلا بالله، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكمالهِ والسعى وراء هذا الكمال وإذا: مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات، حتى يصل الإنسان إلى أولى تلك الخطوات التى وضعتها سابقاً ثم ينتقل منها شيئاً فشيئاً نحو الكمال أو نحو المثل العليا، ولعل حالة هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يسمون فى الجاهلية بالحنفاء مما يقرب فهم ذلك بعض التفريب، وهم قوم رأوا كما رأى قس بن ساعدة أن هذه السماء ذات الأبراج وهذه الأرض ذات الفجاج إلى آخر ما قاله فى خطبته

ترشد إلى أن هناك صانعاً مديراً، وإلى أننا لم نوجد على ظهر تلك البسيطة عبثاً، وإذا كنا لا نتعلم الكثير عن حياة هؤلاء القوم النفسية فأنتنا نعلم أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم ولم يتغمس فيما إنغمس فيه أهل عصره وإنما كان فى نفسه مثال أعلى، غامض بدون شك أو مبهم، بحياة أخرى روحية تخالف تمام المخالفة ما كان عليه أقرابه ومعاشره ولو صور لنا محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يجول بخلد قبل الرسالة لرأينا حياة روحية، فيها التأمل الروحى العميق، فيها المادة للروح وانهزامها أماما بسبب قوة تلك الإرادة التى لم تفارق الرسول صلى الله عليه وسلم فى أشد لحظاته حرجاً. تلك الناحية الروحية عند محمد صلى الله عليه وسلم التى كانت تشتد فتسيطر عيه سيطرة كلية وجزيئية فتجعله يهرب من العالم، ومن تلك الحياة الدنيا التى ليست إلا زينة ولعباً وتفاخراً وتكاثراً بالأموال والأولاد، فيفر منها ويعتزلها، ويذهب إلى غار حراء متأملاً مفكراً، تلك الحياة التى هذا شأنها ليست إلا تصوفاً لم تصقله بعد الرسالة فتصل به إلى أسمى مراتبه. وتناقش الناس كثيراً فى تصوف محمد صلى الله عليه وسلم، وسخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم أول صوفى فى الإسلام.

الواقع أن التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات ليصل الإنسان إلى السمو أو إلى الكمال الروحى ليكون عارفاً بالله وليس من المحتم أن يكون من عناصره فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الفناء فى الله. هذا هو المحاسبى الذى لاشك فى أنه من زعماء الصوفية ليست عنده فكرة الاتحاد أو الجلول أو ماشاكل ذلك من الأفكار التى تصل إلى بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله فتأخذ بنفوسهم وحواسهم وتأخذ بكل مافيه من تفكير فيرون فى النهاية أنه أنما تولوا افشم وجه الله، وأن الله معنا أينما كنا وأن مافى الجبة غير الله.

نعود فنقول إذا كان ذلك ليس من عناصر التصوف اللازمة له وأن عنصره الأساس كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية - المحاسبى أو الغزالى أو رابطة العدوية أو كثير غيرهم - ليس إلا الجهاد لرضاء الله، وتزكية النفس حتى تعرف الله به، إذا كان الأمر كذلك فأنتنا نعتقد - ولسنا فى ذلك الرأى من المجددين - إن محمداً صلى الله عليه

وسلم كان أول صوفى فى الإسلام.

بقى الحديث عن القرآن، وقد كثر الكلام فيه هو أيضاً، ومحط النزاع هو أن القرآن كتاب دنيا وآخره، يدعو إلى هذه وتلك، ويقول بكل بساطة «ولا تنس نصيبك من الدنيا».

أما المتصوف فهو توكل وزهد وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل ولا كثير. والحقيقة أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد فالقرآن ليس كتاب دين ودنيا على الإطلاق والصوفى ليس رجل آخره فقط على الإطلاق.

أجل، إن القرآن يدعو إلى ألا ننسى نصيبنا من الدنيا، وإلى أن نكون أقوياء، وإلى أن السن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف والجروح قصاص، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية، كل هذا صحيح، ولكننا لو نظرنا بتأمل لوجدنا أن الحياة الآخرة فى نظر القرآن خير وأبقى، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم، وأن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة وأن مافى القرآن من دعوة إلى الجهاد إنما هو لإعلاء كلمة الله، ومافيه من الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا إنما هو لأجل ألا يكون المسلم عالة على غيره، وخير من الأخذ بالثأر العفو والصفح، ثم هو بعد ذلك يذكر بأن المؤمنين، هم الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً إلى آخر مافى القرآن من آيات ترشد إلى أن الحياة فى هذا العالم هى حقا الحياة «الدنيا» وأن الآخرة خير وأبقى.

أما أن الصوفى رجل آخره فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم أو على الأقل عدم التحديد، فهذا الصوفى يتزوج ويدعو هو الآخر بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن المؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف وأن العيش من كسب حلال طيب خير من أن يتكفف الإنسان الناس أعطوه أو منعوه ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن، «والآخرة خيرة لك من الأولى». مادام الأمر كذلك فإننا نقول - ولسنا فى ذلك أيضاً بمحددين - إن القرآن يدعو إلى التصوف ويحث عليه وأنه كان السبب فى بعث التصوف الإسلامى.

يقول الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيري -: الطرق كلها مسدودة على الخلق الأعلى من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر: لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيدا بأصول الكتاب والسنة.

معارك الغزالي مع الفلاسفة

ولكن قبل بيان نقد الغزالي لمذهب الفلاسفة عامة، وابن سينا على وجه الخصوص يجدر بنا الإشارة إلى رأى الغزالي. ذلك الرأى الذى سنتبين فيه متابعة من جانب الغزالي للمتكلمين. ومعنى هذا أن الغزالي إذا كان ينقد رأى الفلاسفة. فإن مبعث هذا النقد تأثره بالاتجاه الكلامي الذى يستند بدوره فى كثير من جذوره إلى التراث الدينى الإسلامى. بحيث إن المقارن بين رأى المتكلمين من جهة ورأى الغزالي من جهة أخرى، يجد مشابهة ومطابقة إلى درجة كبيرة.

فإذا رجعنا إلى كتب الغزالي التى تصطبغ بالصبغة الكلامية « كالأقتصاد فى الاعتقاد »، و« قواعد والعقائد ». وجدناه بعد تدليله على وجود الله وإثبات وحدانيته، ينتقل إلى دراسة الصفات الإلهية كالعلم والحياة والإدراك والقدرة والسمع والبصر. وهو - كما يفعل كثير من المتكلمين - يبدأ بدراسة صفة القدرة بحيث يرتب عليها إلى حد كبير القول بالصفات الإلهية الأخرى.

فالغزالي يذهب إلى أن الله تعالى عالم بجميع المعلومات الموجودات والمعدومات، ومحيط بكل المخلوقات، ولا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فيها السماء. وهو يقسم الموجودات إلى قديم وحادث، ويقول إن القديم، وذاته وصفاته « الله ». والحادث الموحودات التى أوجدها الله.

كما يرى أن الله إذا كان يعلم غيره، فهو بالتالى أعلم بذاته وصفاته. وعلى هذا

يكون الله بذاته وصفاته وعلى. وذلك إذا ثبت أنه عالم بغيره فما الدليل على أن الله عالم بغيره؟

فما الدليل إذن على أن الله عالم بغيره؟

يدلل الغزالي على ذلك بالقول بأن معنى الغير هو عبارة عن صنعه المتقن وفعله المحكم المرتب. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على قدرته. «فإن من رأى خطوطاً منظومة تصدر على الاتساق من كاتب. ثم استراب في كونه عالماً بصنعه الكتابة. كان سفياً في استراسته. فإذا ثبت أنه عالم بذاته وبغيره».

لهذا بالإضافة إلى الآيات القرآنية التي تدلنا على أن الله عالم بمخلوقاته. فالله تعالى يقول: «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير».

وإذا كان الغزالي حين يدلل على صفة العلم، يفرق بين القديم والحادث، بين الله وصفاته وبين موجوداته. فإنه يلجأ إلى هذه التفرقة بين الله وبين الموجودات حين يتساءل عن معلومات الله وهل لها نهاية أم ليست متناهية.

فهو يفرق بين معلومات الإنسان المتناهية ومعلومات الله التي ليس لها نهاية، ويرى أن الموجودات في الحال وإن كانت متناهية، فالممكنات المستقبلية ليست متناهية.

ويعلم الله هذه الممكنات وهل سيوجدنها أم سوف لا يوجدنها، وإذن يعلم الله ما لانهاية له. وهذا خلاف العلم الإنساني الذي له حدود معينة.

ويضرب الغزالي مثالا على ذلك قائلا: إن ضعف الأثنين أربعة وضعف الأربعة ثمانية وضعف الثمانية ستة عشر وهكذا تضعف الأثنين وضعف الضعف ولا يتناهى. والإنسان لا يعلم من مراتبها إلا ما يقدره بذهنه، وسينقطع عمره ويبقى من التضعيفات ما لا يتناهى. فإذا معرفة أضعاف أضعاف الإثنين وهو عدد واحد. يخرج عن الحصر، وكذلك كل عدد، فكيف غير ذلك من النسب والتقدير.

هذا جانب من الجوانب الخاصة برأى الغزالي في موضوع العلم الإلهي. وقد عرفنا منه كيف أثبت هذه الصفة لله، كما أثبتتها المتكلمون، وكيف استند إلى التراث الديني

والتراث الكلامي أيضاً.

ولكن أهم ماتركه الغزالي لنا فى هذا المجال، يتمثل فى ذلك النقد الذى وجهه إلى الفلاسفة. سواء منهم من قال بعلمه لذاته فقط، أو من قال منهم بأنه يعلم الأشياء علماً كلياً فحسب.

فإذا رجعنا إلى تهافت الفلاسفة وجدناه يتعرض لنقد آراء الفلاسفة فى موضوع العلم الإلهي. فهو فى المسألة السادسة من تهافته يعرض رأيهم بعد عرض رأى المعتزلة فى الذات والصفات. ويفرق بين رأى ابن سينا الذى يذهب فيه إلى أن الله يعلم الأشياء كلها بنوع كلى لا يدخل تحت الزمان، ولا يعلم الجزئيات التى يوجب تجدد الاطاحة بها تغييراً فى ذات العالم وبين القول بأنه لا يعلم إلا نفسه احترازاً عن الزوم الكثرة.

ثم يخصص الغزالي المسألة الثالثة عشرة من تهافته لهدم آراء الفلاسفة. وهذا واضح من عنوان هذه المسألة: «قضى أبطال قولهم: إن الله - تعالى عن قولهم - لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمان: إلى الكائن وما كان وما سيكون».

ولنعرض الآن للرأى الغزالي مبينين الأسس التى يستند إليها والمآخذ التى يأخذها على الفلاسفة.

يرى الغزالي أن الفريق الأول من الفلاسفة يؤدى مذهبهم إلى القول بأن معلومات الله أفضل منه؛ إذ الملك والإنسان وكل واحد من العقلاء يعرف نفسه ومبدأه ويعرف غيره. والأول لا يعرف إلا نفسه. فهو ناقص بالإضافة إلى آحاد الناس فضلاً عن الملائكة، بل البهيمة مع شعورها بنفسها تعرف أموراً أخرى سواها. ولا شك فى أن العلم شرف وأن عدمه نقصان.

يقول الغزالي ناقداً الفلاسفة: فأين قولهم: إنه عاشق ومعشوق لأن له البهاء الأكمل والجمال الأتم؟ وأى جمال لوجود بسيط لاماهية له ولا خبر له بما يجرى فى العالم ولا بما يلزم ذاته ويصدر عنه؟! وليتعجب العاقل من طائفة يتعمقون فى المعقولات بزعمهم ثم ينتهى آخر نظرهم إلى أن رب الأرباب ومسبب الأسباب لا علم له وأصلاً بما يجرى فى العالم. وأى فرق بينه وبين الميت إلا فى علمه بنفسه؟ وأى كمال فى علمه بنفسه مع جهله بغيره.

هذا بالإضافة إلى أنهم - أى الفلاسفة - فيما يرى الغزالي. لم يتخلصوا من الكثيرة. فإننا نقول: علمه بذاته أو غير ذاته فإن قالوا: إنه غير ذاته فقد جاءت الكثرة. وإن قالوا إنه عين ذاته. فما الفصل بينهم وبين القائل بأن علم الإنسان بذاته عين ذاته. وهذه حقائق، إذ لا يعقل وجود ذاته فى حالة هو فيها غافل عن ذاته. ثم تزول غفلته ويتنبه لذاته، فيكون شعوره بذاته غير ذاته لا محالة هذا عن الفريق الأول، أما الفريق الثانى وهو الذى يعبر عنه مذهب ابن سينا. فيفيض الغزالي فى نقده. وهو يبدأ بعرض أهم معالم رأى هذا الفريق. ويتخذ مثال الكسوف لشرح رأيهم. فيقول إن الشمس مثلا تنكسف. بعد أن لم تكن منكسفة ثم تنجلي فنحصل لها ثلاثة أحوال. أى الكسوف بعد أن ثم انتظار الوجود «المستقل». حال العدم وكونه كان من قبل «الماضى»، حال هوفيه «الحاضر».

وهذه العلوم الثلاثة - فيما يقول الفلاسفة - متعددة ومختلفة، وإذا تعاقبت على المحل، فإن هذا يوجب تغير الذات العاملة، فالعلم يتبع المعلوم، فإذا تغير المعلوم تغير العلم، وإذا تغير العلم فقد تغير العالم لا محالة، والتغير على الله محال.

ومن هنا ذهب ابن سينا - كما سبق أن رأينا حين عرض مذهبه - إلى أن الله يعلم الكسوف وجميع صفاته وعوارضه، ولكن بعلم متصف به فى الأزل والأبد ولا يختلف. مثل أن يعلم مثلاً أن الشمس موجودة وأن القمر موجود، فإنهما حصلا منه بوساطة الملائكة التى تعد عقولا مجردة. ويعلم أيضاً أنها تتحرك حركات دورية وأنهما يجتمعان فى بعض الأحوال فتتكسف الشمس أى يحول جرم القمر بينها وبين المشاهدين فتستتر الشمس.. إلخ وهكذا رلى جميع أحوال الكسوف وعوارضه، بحيث لا يعرب عن علمه، ولكن علمه شئ بهذا الكسوف وحين حدوث الكسوف وبعد انقضاء الكسوف، على وتيرة وحدة لا يختلف ولا يوجب تغيراً فى ذاته.

وهكذا يعتقد الفلاسفة بأن الكل معلوم له، علماً واحداً متناسباً لا يؤثر فيه الزمان، بحيث إن ما يكون الزمان ضرورياً فى معرفته، فإنه لا يتصور أن يعلمه، لأن ذلك لا يوجب التغير.

وما يقال عن الزمان، يمكن أن يقال عن المادة وعن المكان. فأن الأشياء التي تعرض لزيد وعمر وغيرهما من الأفراد لا يعلمها الله. وإنما يعلم الإنسان المطلق بعلم كلي، ويعلم عوارض وخواص هذا الإنسان المطلق لا عوارض وخواص الفرد، إذ أن هذه الخواص والعوارض الخاصة بالفرد، إنما تختلف من فرد إلى فرد، نتيجة للحس لا للعقل. وإذا كان الله عندهم عقلاً خالصاً، فإنهم بالتالي نفوا عنه معرفة عوارض زيد وخالد وغيرهما.

ولكن ما الخطأ في هذا الرأي من جانب فلاسفة أمثال ابن سينا؟
ينبها الغزالي إلى أن هذا الرأي يترتب عليه نتائج خطيرة. فهو يقول: «هذه قاعدة اعتقدوها واستأصلوها بها الشرائع بالكلية، إذ مضمونها أن زيداً مثلاً لو أطاع الله تعالى أو عصاه، لم يكن الله عز وجل عالماً بما يتجدد من أحواله لأنه لا يعرف زيداً بعينه، فإنه شخص، وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن، وإنما يعرف كفر الإنسان وإسلامه مطلقاً، كلياً. لا مخصوصاً بالأشخاص».

ويتابع الغزالي نقده للفلاسفة فيقول: قيم تتكرون على من يقول: إن الله تعالى له علم واحد بوجود الكسوف مثلاً في وقت معين. وذلك العلم قبل وجوده علم بأنه سيكون، وهو بعينه عند الوجود علم بأنه كائن، وهو بعينه بعد الانحلاء علم بالانقضاء. وأن هذه الاختلافات ترجع إلى إضافات لا توجب تبديلاً في ذات العلم، فلا توجد تغييراً في ذات العالم. فإن ذلك ينزل منزلة الإضافة المحضة، إذ أن الشخص الواحد يكون عن يمينك ثم يرجع إلى قدامك ثم إلى شمالك، فتتعاقب عليك الإضافات، المتغير ذلك الشخص المتنقل دونك.

وإذا قالوا - أي الفلاسفة - إن من ضرورة إثبات العلم بالكون الآن، والانقضاء بعده، تغير، فليس ذلك يقول صحيح. إذ من أين عرفوا ذلك؟ فلو خلق الله لنا علماً بقدم زيد غداً عند طلوع الشمس، وأدام هذا العلم، ولم يخلق لنا علماً آخر. ولا غفلة في هذا العلم، لكننا عند طلوع الشمس عالمين بمجرد العلم السابق، بقدمه الآن، وبعده بأنه قد قدم من قبل، وكان ذلك العلم الواحد الباقي كافياً في الإحاطة بهذه الأحوال الثلاثة.

وإذا كنا قد قلنا بأن الغزالي يوجه نقده لفريقين من الفلاسفة. فريق قال يعلمه لذاته فقط، وفريق قال بأنه يعرف الكليات دون الجزئيات أو يعرف الجزئيات على نحو كلي، فإن هذا يتضح من أقوال الغزالي التي ذهب فيها إلى أن الفريق الثاني لا يخرج رأيه في بعض تفصيلاته عن رأى الفريق الأول. فهو يذهب إلى أن الفلاسفة الذين يتصورون علم الله على نحو كلي، إذا قالوا إن الإضافة إلى المعلوم المعين داخلة في حقيقته، ومهما اختلفت الإضافة اختلف الشيء الذي تعد الإضافة ذاتية له، ومهما حصل الاختلاف والتعاقب فقد حصل التغير، فإننا نقول إنه يجب عليكم سلوك مسلك إخوانكم الفلاسفة حيث قالوا: إنه لا يعلم إلا نفسه، وأن علمه بذاته عين ذاته.

وهكذا يأخذ الغزالي في مناقشة كل فريق من الفريقين مبيناً لنا أن آراء الفريق الثاني من الفلاسفة لا تخلو من الأخطاء شأنها شأن رأى الفريق الأول. وهو ينتهي بعد هذا كله إلى القول بأنه من الواجب تكفير الفلاسفة، سوء من قال بأن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه. أو من قال بأنه تعالى لا يعلم إلا الكليات دون أن يحيط بالأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص، لأن هذا فيما يرى تكذيب قاطع للرسول.

وكتاب بداية الهداية من الكتب الهامة التي تبين منهج الغزالي وفلسفته في التصوف، وقد قمت بالأعتماد النسخة المخطوطة الموجودة بدار الكتب المصرية والنسخة المطبوعة إلى جانب مقدمة مولانا فضيلة الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور عاطف العراقي وهما خير من أمددنا في هذه الموضوع.

والله ولي التوفيق

القاهرة في ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم العلامة حجة الإسلام. وبركة الأنام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه، ونور ضريحه آمين. الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه من بعده.

أما بعد فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعطش إليه، أنك إن كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الأقران واستمالة وجوه الناس إليك وجمع حطام الدنيا، فأنت ساع في هدم دينك، وهلك نفسك، وبيع آخرتك بدنياك، فصفتك خاسرة، وتجارتك بائرة، ومعلمك معين لك على عصيانك، وشريك لك في خسرانك. وهو كبائع سيف من قاطع طريق كما قال صلى الله عليه وسلم «مَنْ أَعَانَ عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ كَانَ شَرِيكَاً لَهَا فِيهَا»^(١) وإن كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فإن الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت. ولكن ينبغي لك أن تعلم قبل كل شيء أن الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية

(١) ورد في صحيح مسلم والبخاري وسنن ابن ماجه.

ونهاية وظاهر وباطن، ولا وصول إلى نهاياتها إلا بعد احكام بدايتها، ولا عشور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها. وها أنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتقتحن بها قلبك، فأن صادفت قلبك إليها مائلا ونفسك بها مطاوعة، ولها قابلة فدورك التطلع إلى النهايات، والتغلغل في بحار العلوم، وأن صادفت قلبك عند مواجهتك أياه بها مسوفا وبالعمل بمقتضاها محاطلا، فاعلم أن نفسك اللعين لبيدك بحبل غرور، فيستدرجك بمكيدته إلى غمرة الهلاك، وقصده أن يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء، وماورد فيه من الآثار والأخبار ويلهيك عن قوله صلى الله عليه وسلم «مَنْ أُرْدَاكَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْكَ هُدًى لَمْ يَزِدْكَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا»^(١) وعن قوله صلى الله عليه وسلم «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ»^(٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقول «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَعَمَلٍ لَا يُرْفَعُ وَدَعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»^(٣) وعن قوله صلى الله عليه وسلم «مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنْ نَارٍ فَقُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ هِيَ النَّفْسُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ وَقَدْ انْهَضَتْ مَطْبِيعَةً لِلشَّيْطَانِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ» فإياك يامسكين أن تدعن لتزويره فيبدلك بحبل غروره. فويل للجاهل لم يتعلم مرة واحدة وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة. واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال، رجل طلب العلم ليتخذ به زاد إلى المعاد ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة فهذا من الفائزين. ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة وينال به العز واجاه المال وهو عالم بذلك، مستشعر في قلبه ركاكة حاله وخسة مقصده فهذا من المخاطرين. فأن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة وبقي أمره في خطر

(١) مفتاح كنوز السنة ٣٥٠.

(٢) مفتاح كنوز السنة ٣٥٠.

(٣) مفتاح كنوز السنة ٣٥١.

المشيئة وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل. وأضاف إلى العلم العمل. وتدارك ما فرط فيه من الخلل. التحق بالفائزين. فأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان فأتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره وهو مع ذلك يضرر في نفسه أنه عند الله بكان لاتسامه بسمة العلماء وترسمه برسومهم فى الزى والنطق مع تكاليفه فهذا من الهالكين ومن الحمقى المغرورين إذ الرجاء منقطع عن توبته على الدنيا ظاهراً وباطناً لظنه أنه من المحسنين وهو غافل عن قوله تعالى «بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^(١) وهو ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَنَا مَنُ غَيْرِ الدُّجَالِ أَخُوفُ عَلَيْكُمُ مِنَ الدُّجَالِ قَلِيلٌ وَمَا هُوَ بِأَرْسُولِ اللَّهِ فَقَالَ عُلَمَاءُ السُّوءِ»^(٢) وهذا لأن الدجال غايته الأضلال ومثل هذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو دواع لهم بأعماله وأحوال ولسان الحال أفصح من لسان المقال وطباع الناس إلى المشاهدة فى الأعمال أميل منها إلى المتابعة فى الأقوال، فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله، إذ لا يستجري الجاهل على الرغبة فى الدنيا إلا باستجراء العلماء فقد صار علمه سبباً لجراءة عباد الله على معاصيه ونفسه الجاهلة مدلة مع ذلك قنميه وترجييه وتدعوه إلى أن يمين على الله بعلمه وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله، فكن أيها الطالب من الفريق الأول وأحذر أن تكون من الفريق الثانى فكم من مسوف عاجله الأجل قبل التوبة فخر وأياك ثم أياك أن تكون من الفريق الثالث فتهلك هلاكاً لا يرجى معه فلاحك ولا ينتظر صلاحك. فأن قلت فما بداية الهداية لأجرب بها نفسى فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى ونهايتها باطنة التقوى فلا عاقبة إلا بالتقوى ولا هداية إلا للمتقين. والتقوى عبارة عن أمتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه فهما قسمان وها أنا أشير عليك بجملة مختصرة من ظاهر علم التقوى فى القسمين جميعاً.

(١) ٢م الصف ٦١.

(٢) مفتاح كنوز السنة ١٨٨٧ - ١٨٨٨.

القسم الأول الطاعات

اعلم أن أوامر الله تعالى فرائض، ونوافل فالفرض رأس المال، وهو أصل التجارة وبه تحصل التجارة، والثقل وهو الريح وبه الفوز في الدرجات. قال صلى الله عليه وسلم ^(١) «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا تَقَرَّبَ إِلَى الْمُتَقَرِّبِينَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ عَلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَكِسَاتَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَنْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» ^(٢) ولن تصل أيها الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبك وجوارحك في لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح إلى حين تمسي، فاعلم أن الله تعالى مطلع على ضميرك ومشرف على ظاهرك وباطنك ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك وخطواتك وسائر سكناتك وحركاتك وأنت في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه، فلا يسكن في الملك والمملوك ساكن ولا يتحرك متحرك إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور ويعلم السر وأخفى فتأدب أيها المسكين ظاهراً وباطناً بين يدي الله تعالى تأدب العبد الذليل المذنب في حضرة الملك الجبار والقهار واجتهد أن لا يراك مولاك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك إلى مساءك فاصغ إلى ما يلقى إليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى وقت رجوعك إلى مضجعك.

(١) ورد في السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٥٠.

(٢) مفتاح كنوز السنة.

فصل فى آداب الاستيقاظ من النوم

فاذا استيقظت من النوم فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر، وليكن أول ما يجرى على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى، فقل عند ذلك الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين. اللهم أنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير وأعوذ بك أن أجترح فيه سوءاً أو أجره إلى مسلم. اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور، نسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما فيه فإذا قصد من لباسك. لبست ثيابك فاتو به امتثال أوامر الله تعالى فى ستر عورتك واحذر أن يكون هذا اليوم وشر ما فيه فإذا قصدك من لباسك مرعاة الخلق فتخسر.

باب آداب دخول الخلاء

فإذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة فتقدم في الدخول رجلك اليسرى وفي الخروج رجلك اليمنى، ولا تستصحب شيئاً عليه اسم الله تعالى ورسوله ولا تدخل حاسر الرأس ولا حافي القدمين، وقل عند الدخول بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم، وعند الخروج غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني، وينبغي أن تعد النبل قبل قضاء الحاجة وأن لا تستنجي بالماء في موضع قضاء الحاجة، وأن تستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاث وبمرار اليد اليسرى على أسفل القضيب. وإن كنت في الصحراء فأبعد عن عيون الناظرين أو استبرئ بشئ إن وجدته، ولا تكشف عورتك قبل إلتئهاء إلى موضع الجلوس، ولا تستقبل القبلة ولا الشمس ولا القمر، ولا تستديرهما ولا تبيل في متحدث الناس ولا تبيل في الماء الراكد تحت الشجرة المثمرة ولا في الحجر، واحذر الأرض الصلبة واحذر الريح احترازاً من الرشاش، لقوله صلى الله عليه وسلم «أن عامة عذاب القبر منه»^(١) واتكئ في جلوسك على الرجل اليسرى ولا تبيل قائماً إلا عن ضرورة واجمع في الاستنجا بين استعمال الحجر والماء، فإذا أردت الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل. وإن اقتضت على الحجر فعليك أن تستعمل ثلاثة أحجار طاهرة منشفة للعين، تمسح بها محل النجو بحيث لا تنتقل النجاسة عن موضعها، وكذلك تمسح القضيب في ثلاثة مواضع من حجر، فإن لم يحصل الانقاء بثلاثة فتمم خمسة أو سبعة إلى أن ينقى بالائتار، فالائتار مستحب والانقاء واجب، ولا تستنج إلا باليد اليسرى وقل عند الفراغ من الاستنجا: اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش وأدلك يدك بعد تمام الاستنجا بالأرض أو بحائط ثم اغسلها فرغت من الاستنجا فلا تترك السواك فإنه مطهرة.

(١) ورد في سنن ابن ماجة والترمذي.

آداب الوضوء

فاذا للغم ومرضاه للرب ومسخطة للشيطان وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلا سواك. روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ»^(١) وعنه صلى الله عليه وسلم «أَمَرْتُ بِالسَّوَاكِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيَّ»^(٢) ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كى لا يصيبك الرشاش وقل بسم الله الرحمن الرحيم «رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ»^(٣) ثم اغسل يديك ثلاثا قبل أن تدخلهما الأثناء، وقل اللهم انى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم انو رفع الحدث أو استحاحة الصلاة، ولا ينبغي أن تعزب نيتك قبل غسل الوجه، فلا يصح وضوءك ثم خذ غرفة لفيك وتمضمض بها ثلاثا، وبالغ فى رد الماء إلى الغلصمة إلا أن تكون صائما فترفق، وقل اللهم أعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والآخرة. ثم خذ غرفة لأنفك واستنشق بها ثلاثا واستنثر ما فى الأنف من رطوبة، وقل فى الاستنشاق اللهم أرحنى رائحة الجنة وأنت عني راض، وفى الاستنثار اللهم إني أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ثم خذ غرفة لوجهك فاغسل بها مبتدئا تسطیح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن فى الطول ومن الأذن فى العرض وأوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه، وهو ما بين رأس الأذن إلى زاوية الجبين أعنى ما يقع منه فى جبهة الوجه، وأوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة الحاجبين والشاربين والأهداب والعذارين، وهما ما يوازى الأذنين من مبتدا اللحية ويجب إيصال الماء إلى منابت الشعر من اللحية الخفيفة دون الكثيفة وقل عند غسل الوجه اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك ولا تترك تخليل اللحية

(١) ورد فى جميع الأسانيد.

(٢) انظر: مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

(٣) ٩٧ ك المؤمنون ٢٣.

الكثيفة ثم اغسل يدك اليمنى ثم اليسرى مع المرفقين إلى أنصاف العضدين، فإن الحلية في الجنة تبلغ مواضع الوضوء وقل عند غسل اليمنى: اللهم أعطني كتابي بيمينى وحاسبني حسابا يسيراً وعند غسل الشمال اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالى أو من وراء ظهري. ثم استوعب رأسك بالمسح بأن تبل يدك وتلصق رأس أصابع يدك اليمنى باليسرى وتضعهما على مقدمة الرأس وتقرهما إلى القفا ثم تردهما إلى المقدمة فهذه مرة تفعل ذلك ثلاث مرات وكذلك فى سائر الأعضاء، وقل اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، اللهم حرم شعري وبشرى على النار ثم تمسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بما جديد وأدخل مسبحتيك فى صماخى أذنيك وامسح ظاهر أذنيك بطن ابهاميك، وقل اللهم أجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعنى منادى الجنة فى الجنة مع الأبرار، ثم امسح رقبتك وقل اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال، ثم اغسل رجليك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين وتخلل بخنصر اليسرى أصابع رجليك مبتدئاً بخنصر اليمنى حتى تختم بخنصر اليسرى وتخلل الأصابع من أسفل، وقل اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين. وكذلك تقول عند غسل اليسرى اللهم إني أعوذ بك أن تزل قدمى على الصراط فى النار يوم تزل أقدام المنافقين والمشركين. وأرفع الماء إلى أنصاف الساقين وراع التكرار ثلاثاً فى جميع أفعالك فإذا فرغت من الوضوء فارفع بصرك إلى السماء، وقل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سبحانه اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسى استغفرك وأتوب إليك، فاغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من عبادك الصالحين، واجعلنى صبوراً شكوراً، واجعلنى أذكرك ذكراً كثيراً، وأسبحك بكرة وأصيلاً، فمن قال هذه الدعوات فى وضوئه خرجت خطايا من جميع أعضائه وختم على وضوئه بخاتم، ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله ويقسده ويكتب له ثواب ذلك الوضوء إلى يوم القيامة، واجتنب فى وضوئك سبعاً لا تنفض يديك فترش الماء ولا تلطم رأسك ووجهك بالماء لطماً ولا تتكلم فى أثناء الوضوء ولا تزد فى الغسل

على ثلاث مرات ولا تكثر صب الماء من غير حاجة بمجرد الوسواس فللموسوسين شيطان يلعب بهم، يقال له الولهان. ولا تتوضأ بالماء المشمس ولا فى الأوانى الصفرية فهذه السبعة مكروهة فى الوضوء، وفى الخبر أن من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله، ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصابه الماء.

آداب الغسل

فاذا أصابتك جنابة من احتلام أو وقاع، فاحمل الاناء إلى المفتسل واغسل يديك أولاً ثلاثاً، وأزل ماعلى بدنك من قدر وتوضأ كما سبق وضوءك للصلاة مع جميع الدعوات، وأخر غسل رجليك كى لا يضيع الماء فاذا فرغت من الوضوء فصب الماء على رأسك ثلاثاً، وأنت ناورف الحدث من الجنابة ثم على شقك الأيمن ثلاثاً، ثم على الأيسر ثلاثاً، وإذلك ما أقبل من بدنك وما أدبر واخلل شعر رأسك ولحيتك وأوصل الماء إلى معاطف البدن ومنابت الشعر ماخف منه، وما كثف وأحذر أن تمس ذكرك بعد الوضوء، فإن أصابته يدك فأعد الوضوء. والفريضة من جملة ذلك كله النية وإزالة النجاسة واستيعاب البدن بالغسل، ومن الوضوء غسل الوجه واليدين مع المرفقين، ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين مرة مرة، مع النية والترتيب وما عداها سنن مؤكدة فضلها كثير وثوابها جزيل والمتهاون بها خاسر، بل هو بأصل فرائضه مخاطر فإن النوافل جواهر للفرائض.

آداب التيمم

فأن عجزت عن إستعمال الماء لفقده بعد الطلب أو العذر الوصول إليه مع سبع أو حبس أو كان الماء الحاجة تحتاج إليه لعطشك أو عطش من مرض أو لمانع من رفيقك أو كان ملكاً لغيرك، ولم يبع إلا بأكثر من ثمن المثل، أو كانت بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك، فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة ثم اقصد صعيداً طيباً عليه تراب خالص طاهر لين، فاضرب عليه بكفيك ضمناً بين أصابعك وانو استباحة فرض الصلاة

وامسح بهما وجهك مرة واحدة، ولا تتكلف إيصال الغبار إلى منابت الشعر خف أو كثف ثم انزع خاتمك، واضرب ضربة ثانية مفرقا بين أصابعك وامسح بهما يديك مع مرفقيك فإن لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى إلى أن تستوعبهما، ثم امسح إحدى كفيك بالأخرى وامسح مابين أصابعك بالتخليل، وصل به فرضا واحداً وما شئت من النوافل فإن أردت فرضا ثانيا فاستأنف له تيمنا آخر.

آداب الخروج إلى المسجد

فاذا فرغت من طهارتك فصل في بيتك ركعتي الفجر أن كان الفجر قد طلع كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توجه إلى المسجد ولا تدع الصلاة في الجماعة لاسيما الصبح، فصلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة فأن كنت تتساهل في مثل هذا الريح فأى فائدة لك في طلب العلم، وإنما ثمرة العلم العمل به فإذا مشيت إلى المسجد فامش على الهيئة والسكينة، ولا تعجل وقل في طريقك اللهم بحق السائلين عليك وبحق الراغبين إليك وبحق ممشاي هذا إليك فأنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تتقضى من النار وأن تغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

آداب دخول المسجد

فاذا أردت الدخول إلى المسجد فقدم رجلك اليمنى، وقل اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وعلى صحبه وسلم، اللهم اغفر لى ذنوبى، واقفح لى أبواب رحمتك. ومهما رأيت فى المسجد من يبيع فقل لا أبيع الله تجارتك وإذا رأيت فيه من ينشد عن ضالة فقل رد الله عليك ضالتك، كذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تصلى ركعتي التحية فإن لم تكن على طهارة أو لم ترد فعلها كفتك الباقيات الصالحات ثلاثا وقيل أربعا وقيل ثلاث للمحدث وواحدة للمتوضئ، فإن لم تكن صليت ركعتي الفجر فيجزئك أداوهما عن التحية فاذا فرغت من الركعتين فانو

الاعتكاف وإدع بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر، فقل
 اللهم أنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى، وتلم بها شعشى وترد
 بها ألفتى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شأهى وتزكى بها عملى
 وتبيض بها وجهى وتلمهنى بها رشدى، وتقضى لى بها حاجتى وتعصمنى بها من كل
 سوء، اللهم إنى أسألك إيماناً خالصاً يباشر قلبى وأسألك يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن
 يصيبنى إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى، اللهم إنى أسألك إيماناً صادقاً ويقيناً
 ليس بعده كفر وأسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك
 الصبر عند القضاء والفوز عند اللقاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على
 الأعداء ومرافقة الأنبياء، اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأبى وقصر عملى
 وافتقرت إلى رحمتك فأسألك بإقاضى الأمور ويأشافى الصدور، كما تجبر بين البحور
 أن تجبرنى من عذاب السعير ومن فتنة القبور، ومن دعوة الثبور. اللهم وماضعف عنه
 رأبى وقصر عنه عملى ولم تبلغه نبى وأمنيتى من خير وعدنه أحد من عبادك أو
 خير أنت معطيه أحد من خلقك، فإنى أرغب إليك فيه وأسألك أياه يارب العالمين،
 اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حرباً لأعدائك، سلماً لأوليائك نجب
 بحبك الناس ونعاضد بعدواتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة
 وهذا الجهد وعليك التكلان، وإنا لله وأنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى
 العظيم، اللهم ذالحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود
 مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين لك بالعهد إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما
 تريد سبحانه من اتصف بالعرف وقال به، سبحانه من ليس المجد وتكرم به، سبحانه من
 لا ينبغى التسبيح إلا له، سبحانه ذى الفضل والنعم، سبحانه ذى القدرة والكرم، سبحانه
 الذى أحصى كل شئ بعلمه، اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً فى قبرى ونوراً فى
 سمعى ونوراً فى بصرى ونوراً فى شعرى ونوراً فى بشرى ونوراً فى لحمى ونوراً فى
 دمنى ونوراً فى عظامى ونوراً من بين يدى ونوراً من خلفى ونوراً عن يمينى ونوراً عن
 شمالى ونوراً من فوقى ونوراً من تحتى، اللهم زدنى نوراً وأعطنى نوراً أعظم نور
 واجعل لى نوراً برحمتك يا أرحم الراحمين. فإذا فرغت من الدعاء فلا تشتغل إلا بأداء

الفريضة أو بذكر أو تسبيح أو قراءة القرآن فإذا سمعت الأذان فى أثناء ذلك، فاقطع ما أنت فيه بجواب المؤذن فإذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر، فقل مثل ذلك وكذلك فى كل كلمة إلا فى الحيعلتين فقل فيهما لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فإذا قال الصلاة خير من النوم فقل صدقت وبررت وأنا على ذلك من الشاهدين فإذا سمعت الإقامة فقل مثل مايقول إلا فى قوله قد قامت الصلاة فقل أقامها الله وأدامها مادامت السموات والأرض فإذا فرغت من جواب المؤذن، فقل اللهم إنى أسألك عند حضور صلاتك وأصوات دعائك وأدبار ليلك وإقبال نهارك أن تؤتى محمد الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وإبعثه المقام المحمود الذى وعدته يا أرحم الراحمين، فإذا سمعت الأذان وأنت فى الصلاة فتمم الصلاة ثم تدارك الجواب بعد السلام على وجهه فإذا أحرم الإمام بالفرض فلا تشتغل إلا بالاعتداء به وصل الفرض كما سيتلى عليك فى كيفية الصلاة وآدابها، فإذا فرغت فقل اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينما ربنا بالسلام وأدخلنا دارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام سبحان ربى العلى الأعلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير لا إله إلا الله أهل النعم ولافضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا آياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ثم ادع بعد ذلك بالجوامع الكوامل وهو ماعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها فقل اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم وما قضيت لى من أمر فاجعل عاقبته رشداً، ثم ادع بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها فقل يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث ومن غذا بك استجير لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله بما أصلحت به الصالحين، ثم قل ما قاله عيسى على نبينا

وعليه الصلاة والسلام: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك ما أرجو، وأصبح الأمر بيدك لا بيد غيرك، وأصبحت مرتبها بعملى فلا فقير أفقر منى إليك، ولا غنى أغنى منك عنى، اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى، ولا تسلط على بذنبى من لا يرحمنى. ثم ادع بما بدالك من الدعوات المشهورات واحفظها مما أوردناه فى كتاب الدعوات من كتب إحياء علوم الدين و لتكن أوقاتك بعد الصلاة إلى طلوع الشمس موزعة على أربع وظائف، وظيفة فى الدعوات ووظيفة فى الأذكار والتسبيحات وتكررها فى مسبحة ووظيفة فى قرأة القرآن ووظيفة فى التفكير فتفكر فى ذنوبك وخطاياك وتقصيرك فى عبادة مولاك وتعرضك لعقابه الأليم وسخطه العظيم وترتب أوقاتك بتدبيرك أوردك فى جميع يومك لتتدارك به ما فرطت من تقصيرك وتحترز من التعرض لسخط الله الأليم فى يومك، وتندى الخير لجميع المسلمين نهارك إلا بطاعة الله تعالى وتفضل فى قلبك الطاعات التي تقدر عليها وتعزم أن لا تشغل فى جميع وتختار أفضلها وتتأمل تهينة أسبابها ليستشغل بها ولا تدع عنك التفكير فى قرب الأجل وحلول الموت القاطع للأمل وخروج الأمر عن الأخبار وحصول الحصرة والندامة وطول الاغترار وليكن من تسبيحاتك وأذكارك عشر كلمات أحداهن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير. الثانية لا إله إلا الله الملك الحق المبين. الثالثة لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار. الرابعة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. الخامسة سبح قدوس رب الملائكة والروح. السادسة سبحان الله العظيم. السابعة أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة والمغفرة. الثامنة اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجند منك الجد. التاسعة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم. العاشرة باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم تكرر كل واحدة من هذه الكلمات اما مائة مرة أو سبعين مرة أو عشر مرات وهو أقله ليكون المجموع مائة ولازم هذه الأذكار ولا تتكلم قبل طلوع الشمس. ففى الخير أن ذلك أفضل من اعتناق ثمان رقاب من ولد إسماعيل على نبينا

وعليه الصلاة والسلام أعنى الاشتغال بذلك إلى طلوع الشمس من غير أن يتخلله كلام.

آداب ما بعد طلوع الشمس إلى الزوال

فإذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح فصل ركعتين وذلك عند زوال وقت الكراهة للصلاة، فأنها مكروهة من بعد فريضة الصبح إلى الارتفاع، فإذا أضحى النهار ومضى منه قريب من ريعه فصل صلاة الضحى أربعاً أو ستاً أو ثمانين مثنى مثنى فقد نقلت هذه الأعداد كلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة خير كلها فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقل. فليس بين الطلوع والزوال راتبة إلا هذه الصلوات فما فضل منها من أوقاتك فلك فيه أربع حالات «الحالة الأولى» وهى الأفضل أن تصرفه فى طلب العلم النافع دون الفضول الذى أكب الناس عليه وسمره علما، والعلم النافع ما يزيد فى خوفك من الله تعالى ويزيد فى بصيرتك بعيوب نفسك ويزيد فى معرفتك بعبادة ربك ويقلل من رغبتك فى الدنيا ويزيد فى رغبتك فى الآخرة ويفتح بصيرتك بأفات أعمالك حتى تحتجز منها ويطلعك على مكايد الشيطان وغوره وكيفية تلبسه على علماء السوء حتى عرضهم لمقت الله تعالى وسخطه حيث أشتروا الدنيا بالدين وأتخذوا العلم ذريعة ووسيلة إلى أخذ أموال الأوقاف واليتامى والمساكين وصرفوا همتهم طول نهارهم إلى طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق واضطروهم ذلك إلى المراءاة والمماراة والمناقشة فى الكلام والمباهاة، وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه فى كتاب إحياء علوم الدين فإن كنت من أهله فحصله واعمل به ثم علمه وأدع إليه فمن علم ذلك ثم عمل به، ثم دعا إليه فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السموات بشهادة عيسى عليه السلام، فإذا فرغت من ذلك وفرغت من إصلاح نفسك ظاهراً وباطناً وفضل شئ من أوقاتك فلا بأس أن تشتغل بعلم المذهب فى الفقه، لتعرف به الفروع النادرة فى العبادات وطريق التوسط بين الخلق فى الخصومات عند انكبابهم على الشهوات، فذلك أيضاً عند الفراغ من هذه المهمات من جملة فروض الكفايات فأن دعتك نفسك إلى ترك مذكرناه من الأوراد والأذكار اشتغالا بذلك فاعلم أن الشيطان اللعين قد دس فى قلبك

الداء الدفين وهو حب الجاه والمال فأياك أن تغتر به فتكون ضحكة للشيطان فيهلكك، ثم يسخر بك فإن جرب نفسك مدة في الأوراد والعبادات فكانت لاستثقلها كسلا عنها لكن ظهرت رغبتك في تحصيل العلم النافع ولم ترد به وجه الله تعالى والدار الآخرة فذلك أفضل من نوافل العبادات، مهما صحت النية ولكن الشأن في صحة النية فإن لم تصح النية فهي معدن غرور الجهال ومزلة أقدام الرجال «الحالة الثانية» أن لا تقدر على تحصيل العلم النافع لكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر والقرآن والتسبيحات والصلاة فذلك من درجة العابدين وسير الصالحين، وتكون أيضا بذلك من الفائزين «الحالة الثالثة» أن تشتغل بما يصل منه خير للمسلمين ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين، أو تيسر به الأعمال الصالحة للصالحين كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين والتردد في أشغالهم والسعى في اطعام الفقراء والمساكين والتردد مثلا على المرضى بالعبادة وعلى الجنائز بالتشيع فكل ذلك أفضل من النوافل فإن هذه عبادات، وفيها رفق للمسلمين. «الحالة الرابعة» إن لم تقو على ذلك فاشتغل بحاجاتك اكتسابا على نفسك أو على عيالك وقد سلم المسلمون منك وأمنوا من لسانك ويدك وسلم لك دينك إذا لم ترتكب معصية فتقال به درجة أصحاب اليمين، أن لم تكن من أهل الترقى إلى مقامات السابقين فهذه أقل الدرجات في مقامات الدين، وما بعد هذا فهو من مراتع الشياطين وذلك بأن تشتغل والعباد بالله بما يهدم دينك أو تؤذى عبداً من عباد الله، فهذه رتبة الهالكين فأياك أن تكون في هذه الطبقة وأعلم أن العبد في حق دينه على ثلاث درجات اما سالم وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصي، أو رابع وهو المتطوع بالقرابات والنوافل، أو خاسر وهو المقصر عن اللوازم فان لم تقدر أن تكون رابعا فاجتهد أن تكون سالما وإياك ثم إياك أن تكون خاسرا، والعبد في حق سائر العباد له ثلاث درجات «الأولى» أن ينزل في حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة وهو أن يسعى في أغراضهم رفقا بهم وادخال السرور على قلوبهم «الثانية» أن ينزل في حقهم منزلة البهائم والجمادات فلا ينالهم خيره ولكن يكف عنهم شره «الثالث» أن ينزل في حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات لا يجرى خيره ويتقى شره فان لم تقدر أن تلتحق بافق الملائكة فاحذر أن تنزل عن درجة البهائم والجمادات إلى مراتب العقارب

والحيات ولاسباع الضاريات فأن رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين فلا ترض لها
 بالهوى إلى أسفل السافلين فلعلك تنجو كفافا لالك ولا عليك فعليك فى بياض نهارك
 أن لا تشتغل إلا بما ينفعك فى معادك أو معاشك الذى لا تستغنى عنه وعن
 الاستعانة به على معادك أو معاشك، فإن عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة
 الناس وكنت لاتسلم فالعزلة ففيها النجاة والسلامة فأن كنت الوسوس سقى العزلة
 تجاذبك إلى ما لا يرضى الله تعالى ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم
 فهو أحسن أحوالك وأحوالنا اذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة فى الهزيمة فما
 أحسن حال من سلامة دينه فى تعطيل حياته إذ النوم آخو الموت وهو تعطيل الحياة
 والتحاق الجمادات.

آداب الاستعداد لسائر الصلوات

ينبغي أن تستعد قبل الزوال لصلاة الظهر فقدم القيلولة إن كان لك قيام في الليل أو سهر في الخير فأن فيها معونة على قيام الليل كما أن في السحور معونة على صيام النهار والقيلولة من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار، واجتهد أن تستيقظ قبل الزوال وتتوضأ وتحضر المسجد وتصلى تحية المسجد، وتنتظر المؤذن فتجيبه ثم تقوم فتصلى أربع ركعات عقيب الزوال، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطولهن ويقول «هَذَا وَقْتُ تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَأَحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ لِي فِيهِ عَمَلُ صَالِحٍ»^(١) وهذه الأربع قبل الظهر سنة مؤكدة ففي الخبر «أن من صلاهن فأحسن رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ صَلَّى مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ إِلَى اللَّيْلِ»^(٢) ثم تصلى الفرض مع الإمام ثم تصلى بعد الفرض ركعتين فهما من الرواتب الثابتة، ولا تشتغل إلى العصر إلا بتعلم علم أو إعانة مسلم أو قراءة قرآن أو سعى في معاش تستعين به على دينك. ثم تصلى أربع ركعات قبل العصر وهى سنة مؤكدة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا صَلَّى أَرْبَعًا قَبْلَ الْعَصْرِ» فاجتهد أن ينالك دعاؤه صلى الله عليه وسلم ولا تشتغل بعد العصر إلا بمثل ما سبق قبل العصر ولا ينبغي أن تكون أوقاتك مهملة فتشتغل في كل وقت بما اتفق كيف اتفق بل ينبغي أن تحاسب نفسك وترتب أوردك وظائفك في ليلك ونهارك وتعين لكل وقت شغلا لا تتعده ولا تؤثر فيه سواء فبذلك تظهر بركة الأوقات. فأما إذا تركت نفسك سدى مهملا إهمال البهائم لا تدري بماذا تشتغل في كل وقت فينقض أكثر أوقاتك ضائعا أو فاتك عمرك، وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك إلى نعيم دار الأبد في جوار الله تعالى، فكل نفس من أنفاسك جوهرة لاقيمة لها أذ لا بدل له فإذا فات فلا عود. فإتكن كالحقوى المفرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم فأخير في مال يزيدو عمر ينقص ولا تفرح إلا بزيادة علم أو عمل صالح فانهما رفيقا

(١) المعجم المفهرس للألفاظ الحديث ٢٠٥/١.

(٢) المعجم المفهرس للألفاظ الحديث ٤٠٠/٢.

يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلوك ومالك وولدك وأصدقاؤك ثم إذا اصفرت الشمس فاجتهد أن تعود إلى المسجد قبل الغروب وتشتغل بالتسبيح والاستغفار، فإن فضل هذا الوقت كفضل ما قبل الطلوع قال الله تعالى «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» (١) وأقرأ قبل غروب الشمس «الشَّمْسُ وَضُحَاهَا» (٢) «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى» (٣) والمعوذتين ولتغرب عليك الشمس وأنت في الاستغفار، فإذا سمعت الأذان فأجب وقل بعده اللهم إني أسألك عند إقبال ليلك وأدبار نهارك وحضور صلاتك وأصوات دعائك أن تؤتي محمداً الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الراقية، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته أنك لا تخلف الميعاد والدعاء كما سبق. ثم صل الفرض بعد جواب المؤذن والإقامة وصل بعده ركعتين قبل أن تتكلم فهما راتبة المغرب وإن صليت بعدهما أربعاً فهي أيضاً سنة، وإن أمكنك أن تنوي الاعتكاف إلى العشاء وتحصى ما بين العشاءين بصلاة، فقد ورد فضل ذلك ما لا يحصى وهي ناشئة الليل لأنها أول نشأته وهي صلاة الأوابين وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» (٤) فَقَالَ «هِيَ الصَّلَاةُ مَا بَيْنَ الْعِشَاءِ بَيْنَ إِنَّهَا تَذْهَبُ بِمَلَفَاتٍ أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ» والملفات جمع ملغاه وهي من اللغو. فإذا دخل وقت العشاء فصل أربع ركعات قبل الفرض إحياء لما بين الأذنين ففضل ذلك كثير. وفي الخبر «أن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردُّ» (٥) ثم صل الفرض وصل الراتية ركعتين وأقرأ فيهما سورة ألم السجدة وتبارك الملك أو سورة يس والدخان فذلك مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعده أربع ركعات، ففي الخبر ما يدل على عظيم فضلها ثم صل الوتر بعدها ثلاثاً بتسليمتين أو بتسليمة واحدة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فيهما سورة سبح اسم ربك الأعلى وقل يأيتها الكافرون والإخلاص والمعوذتين فإن كنت عازماً

(١) ٣٩ ك ق ٥٠.

(٢) ١ ك الشمس ٩١.

(٣) ١ ك الليل ٩٢.

(٤) ١٦٦ م السجدة ٣٢.

(٥) مفتاح كنوز السنة.

على قيام الليل فأخر الوتر ليكون آخر صلاتك بالليل وترا، ثم اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة أعمالك قبل نومك فأن الأعمال بخواتيمها.

آداب النوم

فإذا أردت النوم فابسط فراشك مستقبلاً القبلة ونم على يمينك كما يضجع الميت في لحده واعلم أن النوم مثل الموت واليقظة مثل البعث ولعل الله تعالى يقبض روحك في ليلتك فكن مستعداً للقاءه بأن تنام على طهارة وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك وتنام تائباً من الذنوب مستغفراً عازماً على أن لا تعود إلى معصية، واعزم على الخير لجميع المسلمين أن بعثك الله تعالى وتذكر أنك ستضجع في اللحد كذلك وحيداً فريداً ليس معك إلا عملك ولا تجزى إلا بسعيك ولا تستجلب النوم تكلفاً بتمهيد الفرش الوطيئة فأن النوم تعطيل الحياة إلا إذا كانت يقطتك وبالا عليك فنومك سلامة لدينك. وأعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فلا يكون نومك بالليل والنهار أكثر من ثمان ساعات فيكفيك أن عشت مثلاً ستين سنة أن تضجع منها عشرين وهو ثلث عمرك وأعد عند النوم سواك وطهورك واعزم على قيام الليل أو على القيام قبل الصبح وركعتان في جوف الليل كنز من كنوز البر، فاستكثر من كنوزك ليوم ففرك فلن تغنى عنك كنوز الدنيا إذا مت. وقل عند نومك باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه فاغفر لي ذنبي، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك اللهم باسمك أحيأ وأموت أعوذ بك، اللهم من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها لك محياها ومماتها أن أمتها فأغفر لها وإن أحييتها فأحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، اللهم إني أسألك العفو والعافية. اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني بأحب الأعمال إليك حتى تقربنى إليك زلفى وتبعدنى عن سخطك بعداً أسألك

فتعطينى وأستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى، ثم اقرأ آية الكرسي وأمن الرسول إلى آخر السورة والإخلاص والمعوذتين وسورة تبارك الملك وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله وعلى الطهارة فمن فعل ذلك عرج بروحه إلى العرش وكتب مصليا إلى أن يستيقظ، فإذا استيقظت فأرجع إلى ما عرفتك أولا وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك فأن شقت عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء وتفكر فى قصر عمرك وإن عشت مثلاً مائة سنة فهى قليلة بالإضافة إلى مقامك فى الدار الآخرة وهى أهد الآباد، وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل فى طلب الدنيا شهراً أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلاً فكيف لاتتحمل ذلك أياماً قلائل رجاء الاستراحة أهد الآباد. ولاتطول أملك فيثقل عليك عملك وقدر قرب الموت وقل فى نفسك إنى أحتمل المشقة اليوم فلعللى أموت الليلة، وأصبر الليلة فلعللى أموت غدا فأن الموت لايهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص فلا بد من هجومه فلا استعداد له أولى من الاستعداد للدنيا وأنت تعلم أنك لاتبقى فيها إلا مدة يسيرة ولعله يبق من أجلك إلا يوم واحد أو نفس واحد. فقدر هذا فى قلبك كل يوم وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوماً يوماً فأنك لو قدرت البقاء خمسين سنة وأزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعصت عليك فأن فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحاً لا آخر له وإن سوفت وتساهلت جاء الموت فى وقت لاتحتسبه وتحسرت تحسراً لا آخر له وعند الصباح يحمد القوم السرى وعند الموت يأتيك خبر العقبى ولتعلمن نبأه بعد حين. واذ أرشدنا إلى ترتيب الأوراد فلنذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما وآداب القدوة والجماعة والجمعة.

آداب الصلاة

فاذا فرغت من طهارة الخبث وطهارة الحدث فى البدن والثياب والمكان، ومن ستر العودة من السرة إلى الركبة فاستقبل القبلة قائماً مفرجاً بين قدميك بحيث لاتضمهما واستوقائماً ثم اقرأ قل أعوذ برب الناس تحصناً بها من الشيطان الرجيم وأحضر قلبك

وفرغه من الوسواس وأنظر بين يدي من تقوم ومن تناجي واستع أن تناجي مولاك
 بقلب غافل وصدر مشحون بوسواس الدنيا وخبائث الشهوات وأعلم أن الله تعالى مطلع
 على سريرك وتناظر إلى قلبك فأما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك
 وتواضعك وتضرعك وأعبده في صلاتك كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك فان لم
 تحضر قلبك ولم تسكن جوارحك فهذا لقصور معرفتك بجلال الله تعالى فقدر أن رجلا
 صالحا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك فعند ذلك يحضر قلبك
 وتسكن جوارحك ثم أرجع إلى نفسك فقل يانفس السوء ألا تستحيين من خالك
 ومولاك اذا قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده اطلع عليك وليس بيده نفعك ولا ضرر
 خشعت جوارحك وحسنت صلاتك ثم أنك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشين
 لعظمته أهو تعالى عندك أقل من عبد من عباده فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم
 عدواتك لنفسك فعالج قلبك بهذه الحيل فعباه أن يحضر معك في صلاتك فإنه ليس
 لك من صلاتك إلا ماعقلت منها وأما ما أتيت به مع الغفلة والسهو فهو إلى
 الاستغفار والتكفير أحوج فاذا حضر قلبك فلا تترك الإقامة وإن كنت وحدك وإن
 انتظرت حضور جماعة غيرك فأذن ثم أقم فاذا أقيمت فانو وقل في قلبك أودى فرض
 الظهر لله تعالى وليكن ذلك حاضراً في قلبك عند تكبيرك لا تغرب عنك النية قبل
 الفراغ من التكبيرة وأرفع يديك عند التكبير بعد ارسالهما أولاً إلى منكبيك وهما
 مبسوطتان وأصابعهما منشورة ولا تتكلف ضمهما ولا تفريقهما وأرفع يديك بحيث
 تحاذي بابهاميك شحمتي أذنيك ورؤوس أصابعك أعالي أذنيك وتحاذي بكفيك منكبيك
 فاذا استقرتا في مقرهما فكبر ثم أرسلهما برفق ولا تدفع يديك عند الرفع والأرسال إلى
 قدام دفعا ولا إلى الخلف رفعا ولا تنفضهما يمينا ولا شمالا فاذا أرسلتهما فاستأنف
 رفعهما إلى صدرك وأكرم اليمنى بوضعها على الشمال وانشر أصابع اليمنى على طول
 ذراعك اليسرى واقبض بها على كوعها وقل بعد التكبير الله أكبر كبير والحمد لله
 كثير وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم أقرأ وجهتي وجهي للذي فطر السموات والأرض
 حنيئا وما أنا من المشركين الآيتين إلى آخرهما ثم قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
 ثم أقرأ الفاتحة بتشديداتها واجتهد في الفرق بين الضاد والطاء في قراءتك في الصلاة

وقل آمين ولا تصله بقولك ولا الضالين وصلا واجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء
أعنى الركعتين الأوليين إلا أن تكون مأموماً واجهر بالتأمين وأقرأ فى الصبح بعد
الفاتحة من السور طوال المفصل وفى المغرب من قصاره وفى الظهر والعصر والعشاء من
أوساطه نحو والسماء ذات البروج وما قاربها من السور وفى الصبح فى السفر قل يا أيها
الكافرون وقل هو الله أحد ولا تصل آخر السورة بتكبيرة الركوع ولكن افصل بينهما
بمقدار سبحان الله وكن فى جميع قيامك مطرقاً قاصراً نظرك على مصلاك فذلك أجمع
لهمك وأجدر لحضور قلبك وأياك أن تلتفت يمينا وشمالاً فى صلاتك. ثم كبر للركوع
وارفع يديك كما سبق ومد التكبير إلى إنتهاء الركوع ثم ضع راحتيك على ركبتيك
بأصابعك منشورة وانصب ركبتيك ومد ظهرك وعنقك ورأسك مستويا كالصفحة
الواحدة وجاف مرفقيك عن جنبيك والمرأة لا تفعل ذلك بل تضم بعضها إلى بعض وقل
سبحان ربي العظيم وبحمده وإن كنت منفرداً فالزيادة إلى السبع والعشر حسن ثم ارفع
رأسك حتى تعتدل قائماً وأرفع يديك قائلاً سمع الله لمن حمد فإذا استويت قائماً فقل
ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، وإن كنت فى
فريضة الصبح فاقراً القنوت فى الركعة الثانية فى اعتدالك من الركوع ثم اسجد مكبراً
غير رافع اليدين وضع أولاً على الأرض ركبتيك ثم يديك ثم جبهتك مشكوفة وضع
أنفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك وأقل بطنك عن فخديك والمرأة لا تفعل ذلك
وضع يديك على الأرض حذو منكبيك ولا تفرش ذراعيك على الأرض، وقل سبحان
ربى الأعلى ثلاثاً أو سبعة أو عشرة إن كنت منفرداً. ثم ترفع من السجود مكبراً حتى
تعتدل جالساً وأجلس على رجلك اليسرى وانصب قدمك اليمنى وضع يديك على
فخذك والأصابع منشورة، وقل رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى
وعافنى وأعف عنى، ثم اسجد سجدة ثانية كذلك ثم اعتدل جالساً جلسة الاستراحة فى
كل ركعة لاتتشهد عقبها، ثم تقوم وتضع اليدين على الأرض ولا تقدم إحدى رجليك
فى حالة الأرتفاع وإبتدئ بتكبيرة الأرتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة ومدها
إلى منتصف أرتفاعك إلى القيام، ولتكن هذه الجلسة جلسة خفيفة مختطفة، وصل
الركعة الثانية كالأولى وأعد التعوذ فى الإبتداء ثم تجلس فى الركعة الثانية للتشهد

الأول وضع اليد اليمنى فى جلوسك للتشهد الأول على الفخذ اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة والأبهام فترسلهما وأشر بمسبحة يمينك عند قولك إلا الله لا عند لا إله، وضع اليسرى منشورة الأصابع على الفخذ اليسرى بمسبحة يمينك عند قولك واجلس على رجلك اليسرى فى هذا التشهد كما بين السجدة فى التشهد الأخير متوركا واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، واجلس فيه على وركك الأيسر وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك وانصب القدم اليمنى ثم قل بعد الفراغ السلام عليكم ورحمة الله مرتين من الجانبين والتفت بحيث يرى خذك من جانبك وانو الخروج من الصلاة وانو السلام على من على جانبك من الملائكة والمسلمين وهذه هيئة صلاة المنفرد وعماد الصلاة الخشوع وحضور القلب مع القراءة والذكر بالفهم، وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع وقال صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ فَلَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا شَيْءٌ وَلَا عُشْرُهَا وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مَنْ صَلَاتِهِ بِقَدْرِ مَا عَقَلُ مِنْهَا»^(١).

آداب الإمامة والقُدوة

ينبغي للإمام أن يخفف الصلاة قال أنس^(٢) رضى الله عنه ماصليت خلف أحد صلاة أخف ولا أتم من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يكبر مالم يفرغ المؤذن من الإقامة وما لم تسو الصفوف ويرفع الإمام صوته بالتكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وينوى الإمام الإمامة لينال الفضل فأن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نواوا الاقتداء به ونالوا فضل القُدوة، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالقراءة ولاسورة فى جميع الصبح وأولتى المغرب والعشاء وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين فى الجهرية، وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام

(١) مفتاح كنوز السنة.

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الأنصارى المدنى، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وله صحبة طويلة وحديث كثير، مات فى سنة ٩٣هـ.

معلا تعقيبا له ويسكت الإمام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام ولا يقرأ المأموم لسورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام ولا يزيد على الثلاث في تسيبجات الركوع والسجود قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. ويقتصر في الركعتين ولا يزيد في التشهد الأول بعد الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول علي القوم ولا يزيد دعاؤه في التشهد الأخير على قدر تشهده وصلاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينوي الإمام عند التسليم السلام على القوم وينوي القوم بتسليمهم جوابه ويلبث الإمام ساعة بعد ما يفرغ من السلام ويقبل على الناس بوجهه ولا يلتفت إن كان خلفه النساء لينصرفن أولا ولا يقوم أحد من القوم حتى يقوم الإمام، وينصرف الإمام حيث شاء عن يمينه أو شماله واليمين أحب إليه ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول اللهم أهدنا وبجهر به ويؤمن القوم ولا يرفعون أيديهم إذ لم يثبت ذلك في الأخبار ويقرأ المأموم بقية القنوت من قول أنك تقضى ولا يقضى عليك. ولا يقف المأموم وحده بل يدخل الصف أو يجر إلى نفسه غيره. ولا ينبغي للمأموم أن يتقدم على الإمام في أفعاله أو يساويه بل ينبغي أن يتأخر ولا يهوى للركوع إلا إذا إنتهى الإمام إلى حد الركوع. ولا يهوى للسجود مالم تصل جبهة الإمام إلى الأرض.

آداب الجمعة

اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين وهو يوم شريف خص الله عز وجل به هذه الأمة وفيه ساعة مبهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة إلا أعطاه إياها فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب وبكثرة التسيبج والاستغفار عشية الخميس، فأنها ساعة توازي في الفضل ساعة يوم الجمعة وانو صوم يوم الجمعة لكن مع السبت أو الخميس إذا جاء في أفرادها نهى فإذا طلع عليك الصبح فاغتسل فأن غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم أى ثابت مؤكد. ثم تزين بالثياب البيض فأنها أحب الثياب إلى الله تعالى. واستعمل من الطيب أطيب ما عندك. وبالغ في تنظيف بدنك بالخلق والقص

والتقليم والسواك وسائر أنواع النظافة وتطيبب الرائحة، ثم بكر إلى الجامع واسع إليها على الهيئة والسكينة فقد قال صلى الله عليه وسلم من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بغرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً ومزراح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة قال فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون ويقال إن النظر إلى وجه الله تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة، ثم إذا دخلت الجامع فاطلب الصف الأول فإن اجتمع الناس فلا تتخط رقابهم ولا تمر بين أيديهم وهم يصلون وأجلس بقرب حائط أو أسطوانة حتى لا يمروا بين يديك ولا تقعد حتى تصلى التحية والأحسن أن تصلى أربع ركعات تقرأ في كل ركعة خمسين مرة سورة الإخلاص ففي الخبر من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ولا تترك التحية وأن كان الإمام يخطب ومن السنة أن تقرأ في أربع ركعات سورة الأنعام والكهف وطه ويس فإن لم تقدر فسورة يس والدخان والم سجدة وسورة الملك ولاتدع قراءة هذه السورة ليلة الجمعة ففيها فضل كثيرة ومن لم يحسن ذلك فليكثر من قراءة سورة الإخلاص واكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم خاصة. ومهما خرج الإمام فاقطع الصلاة والكلام واشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة والاعتاظ بها ودع الكلام رأساً في الخطبة ففي الخبر أن من قال لصاحبة والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له أى لأن قوله أنصت كلام فينبغي أن ينهى غيره بالإشارة لا باللفظ. ثم اقتد بالإمام كما سبق فإذا فرغت وسلمت فأقرأ الفاتحة قبل أن تتكلم سبع مرات والإخلاص سبعا والمعوذتين سبعا فذلك يعصمك من الجمعة إلى الجمعة الأخرى ويكون حرزاً لك من الشيطان وقل بعد ذلك اللهم يا غنى يا حميد يا مبدى يا معيد يا رحيم ياودود أغنى بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك. ثم صل بعد الجمعة ركعتين أو أربعاً وكن حسن المراقبة أو ستامثنى فكل ذلك مروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحوال مختلفة. ثم لازم المسجد إلى المغرب أو إلى العصر مبهمه في جميع اليوم فعسك أن تدركها وأنت خاشع لله متضرع للساعة الشريفة فأنها ولا تحضر في الجامع مجالس الخلق ولا مجالس

القصاص بل مجلس العلم النافع وهو الذى يزيد في خوفك من الله تعالى وينقص من رغبتك في الدنيا فكل علم لا يدعك من الدنيا إلى الآخرة، فالجهل أعود عليك منه فاستعذ بالله من علم لا ينفع. وأكثر الدعاء عند طلوع الشمس وعند الزوال وعند الغروب وعند الإقامة وعند صعود الخطيب المنبر وعند قيام الناس إلى الصلاة فيوشك أن تكون الساعة الشريفة في بعض هذه الأوقات واجتهد أن تتصدق في هذا اليوم كما تقدر عليه وإن قل فتجمع بين الصلاة والصوم والصدقة والقراءة والذكر والاعتكاف والرباط واجعل هذا اليوم من الأسبوع خاصة لأخرتك فعساه أن يكون كفارة لبقية الأسبوع.

آداب الصيام

لا ينبغي أن تقتصر على صوم رمضان فتترك التجارة بالنوافل وكسب الدرجات العالية في القرايس فتتحسر إذا نظرت إلى الصائمين كما تنظر إلى الكواكب الدرى وهم في أعلى عليين والأيام الفاضلة التي شهدت الأخبار بفضلها وبشرافها وبجزالة الثواب في صياها يوم عرفة لغير الحاج ويوم عرفة لغير الحاج ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الأول من المحرم ورجب وشعبان، وصوم الأشهر الحرم من الفضائل وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد. وهذه في السنة. وأما في الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره والأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر. وأما في الأسبوع فيوم الاثنين والخميس والجمعة فتكفر ذنوب الأسبوع بصوم الاثنين والخميس وذنوب الشهر تكفر باليوم الأول من الشهر واليوم الأوسط واليوم الآخر والأيام البيض، وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الأيام والأشهر المذكورة ولا تظن إذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط قال صلى الله عليه وسلم «كَمْ مِنْ ضَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ» بل تمام الصيام يكف الجوارح كلها عما يكره الله تعالى بل ينبغي أن تحفظ العين عن النظر إلى الكاره واللسان عن النطق بما لا يعينك والأذن عن الاستماع إلى ما حرم الله فإن المستمع شريك

القاتل وهو أحد المغتايين. وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج ففي الخبر «خمس يُفطرْنَ الصائم: الكذب والغيبة والنميمة والنظرُ بشهوة واليمينُ الكاذبة: وقال صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرُقْثُ وَلَا يَفْسُقُ وَلَا يَجْهَلُ فَإِنْ أَمَرُوْا تَأْكُلَهُ أَوْ شَابَتَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ»^(١) ثم أجتهد أن تفرط على طعام حلال ولا تستكثر فتزيد على ما تأكله كل ليلة لأجل صيامك فلا فرق إذا استوفيت ماتعتاد أن تأكله دفعة أو دفعتين وإنما المقصود كسر شهوتك وتضعيف قوتك لتقوى بها على التقوى، فإذا أكلت عيش مافاتك فقد تداركت به مافاتك فلا فائدة لوصولك وقد ثقلت عليك معدتك ومامن وعاء أبغض إلى الله من بطن ملئ من حلال فكيف إذا كان من حرام. فإذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعت فإنه أساس العبادات ومفتاح القربات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى «كُلْ حَسَنَةً بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِينَ ضِعْفًا إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِ الصَّوْمِ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ»^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم «لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ»^(٤) فهذا القدر يكفيك من شر الطاعات من بداية الهداية فإذا احتجت إلى الزكاة وإلى الحج أو إلى مزيد شرح الصلاة والصيام فاطلبه مما أردناه في كتاب إحياء علوم الدين.

القسم الثاني القول في اجتناب المعاصي

أعلم أن الدين شطران أحدهما ترك المناهي والآخر فعل الطاعات وترك المناهي وهو الأشد فان الطاعات يقدر عليها كل أحد وترك الشهوات لا يقدر عليه إلا الصديقون

(١) انظر: مفتاح كنوز السنة.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

(٣) انظر: مفتاح كنوز السنة.

(٤) انظر: مفتاح كنوز السنة.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «المهاجرُ من هجرَ السوءَ والمُجاهدُ من جاهدَ هواهُ»
واعلم أنك انما تعصى الله بجوارحك وانما هى نعمة من الله عليك وأمانة لديك
فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران وخيانتك فى أمانة أودعها الله
غاية الطغيان فأعضاؤك رعاؤك فانظر كيف ترعاها فكلكم راع وكلكم مسئول عن
رعيته. واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك فى عرصات القيامة بلسان طلق ذلق
أى فصيح تفضحك به على رؤوس الخلائق قال الله تعالى «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ السَّيِّئَةُ
وَأَيُّدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(١) وقال تعالى «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا
أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(٢) فاحفظ جميع بدنك وخصوصا أعضاءك
السبعة فإن جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ولا يتعين لتلك الأبواب
إلا من عصى الله بهذه الأعضاء السبعة وهى العين والأذن واللسان والبطن والفرج
واليد والرجل أما العين فأما خلقت لك لتتهدى بها فى الظلمات وتستعين بها فى
الحاجات وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسماوات وتعتبر بما فيها من الآيات
فاحفظها عن ثلاث أو أربع أن تنظر بها إلى غير محرم أو إلى صورة مليحة بشهوة
نفس أو تنظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار أو تطلع بها على عيب مسلم. وأما الأذن
فاحفظها عن أن تصغى بها إلى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض فى الباطل أو
ذكر مساوى الناس فأما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم وحكمة أوليائه وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم.
فاذا أصغيت بها إلى شئ من المكاره صارما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك
وسبب هلاكك فهذه غاية الخسران. ولا تظن أن الأثم يختص به القاتل دون المستمع
ففى الخبر: أن المستمع شريك القاتل وهو أحد المغتابين. وأما اللسان فأما خلق لك
لتشكر به ذكر الله تعالى فسأل الله أن يرشد خلق الله تعالى إلى طريقته وتظهر به مافى
ضميرك من حاجات دينك ودنياك فاذا استعملته فى غير ما خلق له فقد كفرت نعمة

(١) ٢٤ م النور ٢٤.

(٢) ٦٥ ك يس ٣٦.

الله تعالى فيه وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك في قعر جهنم ففي الخبر «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَيُضْحِكُ بِهَا أَصْحَابَهُ فَيَهْوَى بِهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا» (١) وقتل شهيد في المعركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل هنينا له الجنة فقال صلى الله عليه وسلم «مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ وَيَبْخُلُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ» (٢) فاحفظ لسانك من ثمانية الأولى الكذب فاحفظ منه لسانك في الجد والهزل ولا تعود نفسك الكذب هزا فيدعوك إلى الكذب في الجد، والكذب من أمهات الكبائر. ثم انك اذا الأبواب إذما سقط عدالتك وانتفى قولك وتزديك الأعين ومحتقرك. واذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك فأنظر إلى كذب غيرك وإلى نفرة نفسك عنه واستحقارك لصاحبه واستقبحاك لما جاء به، وكذلك فافعل في جميع عيوب نفسك فأنت لا تدري قبح عيوبك من نفسك بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة فلا ترض لنفسك ذلك «الثانية» الخلف في الوعد فأياك أن تعد بشئ ولا تفي به بل ينبغي أن تكون إحسانك إلى الناس فعلا بلا قول فإن اضطرت إلى الوعد فأياك أن تتخلف لا لعجز أو ضرورة فإن ذلك من أمارات النفاق وخيائث الأخلاق قال عليه السلام «ثَلَاثُ مَنْ كُنْ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أَتَى حَانَ» (٣) «الثالثة» حفظ اللسان من الغيبة، والغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام كذلك ورد في الخبر ومعنى الغيبة أن تذكر إنسانا بما يكرهه لو سمعه، فأنت مغتاب ظالم وإن كنت صادقا وأياك وغيبة القراء المرائين وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح فتقول أصلحه الله فقد أسأنى وغمنى ماجرى عليه فنسأل الله أن يصلحنا وإياه فان هذا جمع بين خبيثين أحدهما الغيبة اذا حصل بها التفهم والآخر تزكية النفس والثناء عليها بالتحرج

(١) مفتاح كنوز السنة.

(٢) مفتاح كنوز السنة.

(٣) مفتاح كنوز السنة

والصلاح ولكن إن كان مقصودك من قولك أصلحه الله الدعاء له في السر. وإن أغتمت بسببه فعلامته أنك لا تريد فضيحتة واطهار غيبته وفي اظهارك الغم بعيبه اظهار تعييبه ويكفيك زاجرا عن الغيبة قوله تعالى «وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»^(١) فقد شبهك الله بأكل لحم الميتة فما أجدر أن تحتزز منها. ويمنعك عن غيبة المسلم أمر لو تفكرت فيه وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن وهل أنت مقارف معصية سرا أو جهرا فإذا عرفت ذلك في نفسك فاعلم أن عجزه عن التنزه عما نسبته إليه كعجزك وعذره كعذرِكَ، كما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضا يكرهه فإن سترته ستر الله عيبك وإن فضحته سلط الله عليك السنة حدادا يمزقون عرضك في الدنيا ثم يفضحك الله في الآخرة على رموس الخلاق يوم القيامة وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيها على عيب ونقص في دين ولا دنيا فأعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماسة ولا عيب أعظم من الحق ولو أراد الله بك خيرا لبصرك بعيوب نفسك فرويتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك. ثم أن كنت صادقا في ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بسبب الناس والتضمض بأعراضهم فإن ذلك من أعظم العيوب «الرابعة» المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم ثم هو مشوش للعيش فأنت لا تماري سفيها إلا ويؤذيكَ ولا تماري حليما إلا ويقلبك ويحقد عليك وقد قال صلى الله عليه وسلم «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي رِضَى الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ»^(٢) ولا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تدهن فيه فإن الشيطان أبدا في معرض الخير فلا تكن ضحكة للشيطان يسخر بك فاظهارك الحق يستجر الحمق إلى الشر حسن مع من يقبله منك وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة وللنصيحة صيغة وهيئة ويحتاج

(١) ١٢ م الحجرات ٤٩.

(٢) مفتاح كنوز السنة.

فيها إلى تطف والإصارت فضيحة وصار فسادها أكثر من صلاحها. ومن خالط متفتحة العصر غلب على طبعه المراء والجدال وعسر عليه الصمت إذا ألقى عليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل والقدرة على الحاجة والمناقشة وهو الذى يتمدح به ففر منهم فرار من الأسد وأعلم أن المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق «الخامسة» تزكية النفس قال الله تعالى «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»^(١) وقيل لبعض الحكماء ما الصدق القبيح فقال ثناء المرء على نفسه. فأياك أن تتعود ذلك. وأعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله فإذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد فى قدرك عند غيرك فانظر إلى أقرانك إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك وكيف تذهبهم عليه إذا فارقتهم فأعلم أنهم أيضا فى حال تزكيتك لنفسك يذمونك فى قلوبهم ناجزا وسيظهرونه بالسنتهم إذا فارقتهم «السادسة» اللعن فأياك أن تلعن شيئا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو أنسان بعينه ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق، فإن المطلع على السرائر هو الله تعالى فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى وأعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك لم لم تلعن فلانا ولم سكت عنه بل لو لم تلعن ابليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره لم تسئل عنه ولم تطالب به يوم القيامة وإذا لعنت أحد من خلق الله تعالى طولبت. ولاتذ من شيئا مما خلق الله تعالى فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يذم الطعام الرديء قط بل كان إذا اشتهى شيئا أكله وإلا تركه «السابعة» الدعاء على الخلق احفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى وإن ظلمك فكل أمره إلى الله تعالى فى الحديث «إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى ظَالِمِهِ حَتَّى يُكَافئه ثُمَّ يَكُونُ لِلظَّالِمِ فَضْلٌ عِنْدَهُ يُطَالِبُهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) وطول بعض الناس لسانه على الحجاج فقال بعض السلف: ان الله لينتقم للحجاج ممن يتعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه. «الثامنة» المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس فأحفظ

(١) ٣٢ م النجم ٥٣.

(٢) مفتاح كنوز السنة.

مَلَكَتْ أَيْمَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ»^(١) ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر وحفظ القلب عن الفكر وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشيع فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها. وأما اليدان فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلما أو تتناول بهما ملا حراما أو تؤذى بهما أحدا من الخلق أو تخون بهما فى أمانة أو ودعة أو تكتب بهما مالا يجوز النطق به فإن القلم أحد اللسانين فأحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه «وأما الرجلان» فأحفظهما عن أن تمس بهما إلى حرام أو تسعى بهما إلى باب سلطان ظالم فالتمس إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وارهاق معصية كبيرة فانه تواضع لهم واکرام لهم على ظلمهم وقد أمر الله تعالى بالأعراض عنهم فى قوله تعالى «وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ»^(٢) الآية وإن كان ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعى إلى الحرام وقد قال صلى الله عليه وسلم «مَنْ تَوَاصَعَ لَغْنَى صَالِحٍ لَغْنَاهُ ذَهَبٌ ثُلُثَا دِينِهِ»^(٣) هذا فى غنى صالح فما ظنك بالغنى الظالم وعلى الجملة فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك فلا تحرك شيئا منها فى معصية الله تعالى أصلا واستعملها فى طاعة الله تعالى واعلم أنك ان قصرت فعليك رجوع وباله وإن شمعت فإليك ترجع ثمرته والله غنى عنك وعن عملك وإنما كل نفس بما كسبت رهينة. وأياك أن تقول إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل وصاحبها مقلب بالحماقة بتقليب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «أَلَكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَعْنَى عَلَى اللَّهِ الْإِمَانِي»^(٤) وأعلم أن قولك هذا أيضا هى قول من يريد أن يصير فقيها فى علوم الدين واشتغل بالبطالة وقال أن الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبى من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلق وهو كقول من

(١) ٣٠ ك المعارج ٧٠.

(٢) ١١٣ ك هود ١١.

(٣) مفتاح كنوز السنة.

(٤) مفتاح كنوز السنة.

يريد مالا فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال أن الله كريم رحيم وله خزائن السموات والأرض وهو قادر على أن يطلعنى على كنز من الكنوز أستغنى به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمتهما وسخرت منهما وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقا حقاً فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر فى الدين إذا طلبت المغفرة سعى لها والله تعالى يقول «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (١) ويقول «إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٢) ويقول «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» (٣) فإذا لم تترك السعى فى طلب العلم والمال اعتماداً على كرمه فكذلك لا تترك التزود للأخرة ولا تغتر بأن رب الدنيا والآخرة واحد وهو فيهما كريم ورحيم ليس يزيد له كرم بطاعتك وإنما كرمه فى أن ييسر لك طريق الوصول إلى الملك المقيم المخلد بالصبر على ترك الشهوات أياً ما قلائل وهذا نهاية الكرم فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين واقتد بأولى العزم والنهى من الأنبياء والصالحين ولا تطمع فى أن تحصد مالم تزرع وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفرله، فهذه جملة ما ينبغي أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة، وأعمال هذه الجوارح أنما تترشح من صفات القلب فأن أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب وهو التقوى الباطن والقلب هو المضغة التى إذا صلحت صلح لها الجسد كله فاشتغل بصلاحه لتصلح به جوارحك «القول فى معاصى القلب» أعلم أن الصفات المذمومة فى القلب كثيرة وتطهير القلب من رذائلها طويل وسبيل العلاج فيها غامض وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الخلق عن أنفسهم واشتغالهم بزخارف الدنيا وقد استقصينا ذلك كله فى كتاب إحياء علوم الدين فى ريع المهلكات أو ريع المنجيات، ولكننا نذكرك الآن ثلاثاً من خباثات القلب هى الغالبة على متفقه العصر لتأخذ منها حذرک فأنها مهلكات فى أنفسها وهى أمهات لجملة من الخباثات سواها وهى الحسد والرياء والعجب فاجتهد فى تطهير

(١) ٣٩ ك النجم ٥٣.

(٢) ٣٩ ك الصافات ٣٧.

(٣) ١٤ ك الأنطار ٨٢.

قلبك منها فإن قدرت عليها فتعلم كيفية الحذر من بقيتها من ريع المهلكات فإن عجزت عن هذا فأنت عن غيره أعجز ولا تظن أنك تسلم بنية صالحة في تعلم العلم وفي قلبك شيء من الحسد والرياء والعجب وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثَلَاثُ مَهْلِكَاتُ شَيْءٌ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(١) «أما الحسد» فهو متشعب من الشح فإن البخيل هو الذي يبخل بما في يده على غيره والشحيح هو الذي يبخل بنعمة الله وهي في خزائن قدرته لافى خزائنه على عباد الله تعالى فشحه أعظم. والحسود هو الذي يشق عليه أنعام الله تعالى من خزائن قدرته على عبد من عباده يعلم أو مال أو محبة في قلوب الناس أو حظ من الحظوظ حتى أنه ليجب زوالها عنه وأن لم يحصل له من ذلك مصلحة وهذا منتهى الخبث فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٢) والحسود هو المعذب الذي لا يرحم ولا يزال في عذاب دائم في الدنيا، فإن الدنيا لا تخلو قط عن خلق كثير من أقرانه ومعارفه ممن أنعم الله عليهم يعلم أو مال أو جاه فلا يزال في عذاب دائم في الدنيا إلى موته ولعذاب الآخرة أشد وأكبر بل لا يصل العبد إلى حقيقة الإيمان مالم يحب لسائر المسلمين ما يحب لنفسه بل ينبغي أن يساويهم في السراء والضراء فالمسلمون كالبنين الواحد يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد إذا شكا منه عضو اشتكى سائر الجسد فإن كنت لاتصادف هذا من قلبك فاشتغالك بطلب التخلص من الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات. وأما الرياء فهو الشرك الخفى وهو أحد الشركين وذلك طلبك منزلة في قلوب الخلق لتنال بها الجاه والحشمة وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس فما أهلك الناس إلا الناس فلو أنصف الناس حقيقة لعلموا أن أكثر ما هم فيه من العلوم والعبادات فضلا عن أعمال العادات ليس يحملهم عليها إلا مراعاة الناس، وهي محبطة للأعمال كما ورد في الخبر أن الشهيد يؤمر به يوم القيامة إلى النار يارب استشهدت في سببك فيقول الله تعالى أردت أن يقال فلان شجاع وقد قى

(١) مفتاح كنوز السنة.

(٢) مفتاح كنوز السنة.

وذلك أجرك. كذا يقال للعالم والحاج والقارئ. وأما العجب والكبر والفخر فهو الداء العضال وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العزة والاستعظام وإلى غيره بعين الاحتقار ونتيجته على اللسان أن يقول أنا وأنا كما قال إبليس اللعين أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين وثمرته في المجالس الترفع والتقدم وطلب التصدر في المحاورة والاستنكاف من أن يرد كلامه عليه. والمتكبر هو الذي ان وعظ أنف أو وعظ عنف وكل من رأى نفسه خيرا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر، بل ينبغي لك أن تعلم أن الخير من هو خير عند الله في دار الآخرة، وذلك غيب وهو موقوف على خاتمة فاعتقادك في نفسك أنك خير من غيرك جهل محض، بل ينبغي أن لا تنظر إلى أحد إلا وترى أنه خير منك وأن الفضل له على نفسك فإن رأيت صغيرا قلت هذا لم يعص الله وأنا عصيته فلا شك أنه خير مني وإن رأيت كبيرا قلت هذا قد عبد الله قبلى فلا شك أنه خير مني وإن كان عالما. قلت هذا قد أعطى مالم أبلغ وعلم ما جهلت فكيف أكون مثله وإن كان جاهلا قلت هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله على أكדوما أدرى به يختم لى وبما يختم له وإن كان كافرا قلت لا أدرى عسى أن يسلم ويختم له بخير العمل وينسل بإسلامه من الذنوب كما تنسل الشعرة من العجين وأما أنا والعياذ بالله فعسى أن يضلنى الله فأكفر فيختم لى بشر العمل فيكون هو من المقربين وأنا أكون من المعذبين فلا يخرج الكبر من قلبك إلا بأن تعرف أن الكبير من هو كبير عند الله تعالى وذلك موقوف على الخاتمة وهى مشكوك فيها فيشغلك خوف الخاتمة عن أن تتكبر مع الشك فيها على عباد الله تعالى فيقينك وإيمانك فى الحال لا يناقض تجوزك التغير فى الاستقبال فان الله مقلب القلوب يهدى من يشاء والأخبار فى الحسد والكبر والرياء والعجب كثيرة ويكفيك فيها حديث واحد جامع، فقد روى ابن المبارك بأسناده عن رجل أنه قال لمعاذ يامعاذ حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لايسكت ثم سكت ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى «يا مُعَاذُ إِنِّى مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَقَعَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنْ أَنْتَ ضَيَعْتَهُ وَلَمْ تَحْفَظْهُ أَنْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَامُعَاذُ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ

والأرض فجعل لكل سماء من السبع ملكاً بواباً عليها فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى إذا طلعت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربى أن لا أدع عمل من اعتاب الناس يُجاوِزني إلى غيرى قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله عرض الدنيا أمرني ربى أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيرى إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم أنا ملك الفخر قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يتهج نوراً من صدقة وصلاة وصيام وقد أعجب الحفظة فيجاوِزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربى أن لا أدع عمله يُجاوِزني إلى غيرى أنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم. قال وتصعد الحفظة بعلم العبد يزهو كما يزهو الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وصيام وحج وعمرة حتى يُجاوِزوا به إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهروا وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربى أن لا أدع عمله يُجاوِزني إلى غيرى إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب فيه قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يُجاوِزوا به إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى بعلمها فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وأحبلوه على عاتقه أنا ملك الحسد أنه كان يحسد من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة كان يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربى أن لا أدع عمله يُجاوِزني إلى غيرى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد له ضوء كضوء القمر من صلاة وزكاة وحج وعمرة وجهاد وصيام فيجاوِزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو مرض بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرني ربى أن لا أدع عمله يُجاوِزني إلى غيرى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وصيام ونفقة وجهاد ودرع له دوى كدوى النحل وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوِزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا

بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا جوارحه وأقفلوا به على قلبه أنا صاحب الذكر فاني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي أما أراد بعمله غير الله تعالى إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرنا عند العلماء وصيتنا في المدائن أمرني ربي لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة ولا يقبل الله عمل المراني وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشييعه ملائكة السبع السموات حتى يقطعوا الحجب كلها إلى الله تعالى فيقفون بين يديه يشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله تعالى فيقول الله تعالى أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على قلبه إنه لم يؤدني بهذا العمل وأراد به غيري فعمله لغتني فتقول الملائكة كلها عليه لعنتك ولعنتنا ولعنته السبع السموات ومن فيهن فبكى معاذ قال معاذ قلت يارسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف لي بالخلاص والنجاة قال أقتد بي وإن كان في عملك نقص يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن وحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك عليهم وتذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من خلفك ولا تتأج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تمزيق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى «والنشاطات نشطا» هل تدري ما هن يامعاذ قلت ما هي بأبي أنت وأمي يارسول الله قال كلاب في النار تنشط اللحم من العظم قلت بأبي أنت وأمي يارسول الله من يطيق هذه الخصال ومن يتجو منها قال يامعاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه قال خالد بن معدان فما رأيت أحدا أكثر تلاوة للقرآن العظيم من معاذ لهذا الحديث العظيم فتأمل أيها الراغب في العلم هذه الخصال واعلم أن أعظم الأسباب في رسوخ هذه الخباثات في القلب طلب العلم لأجل المباهاة والمناقشة فالعامي معزل عن أكثر هذه الخصال والمتفقه مستهدف لها وهو معرض للهلاك بسببها فانظر أي أمورك أهم أن تتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات وتستغل باصلاح قلبك وعمارة آخرتك أم الأهم أن تخوض مع الخائضين فتطلب من العلم ما هو سبب زيادة الكبر والرياء والحسد والعجب حتى تهلك مع الهالكين واعلم أن هذه الخصال

الثلاث من أمهات خبائث القلب ولها مغرس واحد وهو حب الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١) ومع هذا فالدنيا مزرعة للأخرة فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة يستعين به على الآخرة فالدنيا مزرعته ومن أراد الدنيا ليتنعم بها فالدنيا مهلكته فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى وهى بداية الهداية فأن جريت نفسك فيها وطاوعتك عليها فعليك بكتاب إحياء علوم الدين لتعرف كيفية الوصول إلى باطن التقوى فإذا عمرت بالتقوى باطن قلبك فعند ذلك ترتفع الحجب بينك وبين ربك وتنكشف لك أنوار المعارف وتنفجر الحكمة وتتضح لك أسرار الملك والمملوك ويتيسر لك من العلوم ما تستحق به هذه العلوم المحدثه التى لم يكن لها ذكر فى زمن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين. وإن كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما أعظم مصيبتك وما أطول تعبك وأعظم حرمانك وخسرانك فعمل ماشئت فأن الدنيا التى تطلبها بالدين لاتسلم لك والآخرة تسلب منك، ومن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعا ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعا. فهذه جمل الهداية إلى بداية الطريق فى معاملتك مع الله تعالى بأداء أوامره واجتناب نواهيه. وأشير عليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ بها نفسك فى مخالطتك مع عباد الله تعالى وصحبك معهم فى الدنيا

«القول فى آداب الصحبة والمعاشرة

مع الخالق سبحانه وتعالى ومع الخلق»

أعلم أن صاحبك الذى لا يفارقك فى حضرك وسفرك بل فى حياتك وموتك وهو ربك وسيدك ومولاك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليستك إذ قال الله تعالى «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي»^(٢) ومهما انكسر قلبك حزنا على تقصيرك فى حق دينك فهو صاحبك وملازمك إذ قال الله تعالى «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قَلْبُهُمْ مِنْ أَجْلِى» فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانبا فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك

(١) مفتاح كنوز السنة.

(٢) مفتاح كنوز السنة

فأياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولك وتتلذذ معه بمناجاتك وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى «وآدابها» أطراق الرأس وغض الطرف وجمع الهم ودوام الصمت وسكون الجوارح ومبادرة الأمر واجتناب النهى وقلة الاعتراض على القدر ودوام الذكر وملازمة الفكر وإيثار الحق على الباطل والاياس عن الخلق والخضوع تحت الهيبة والإنكسار تحت الحياء والكسب ثقة بالضمان والتوكل على فضل الله معرفة بحسن الاختيار. وهذا كله ينبغي أن يكون شعارك في جميع ليلك ونهارك فإن آداب الصحبة مع صاحب لايفارفونك والخلق يفارقونك في بعض أوقاتك. إن كنت عالماً فأدب العلم سبعة عشر: الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع اطراق الرأس وترك الكبر على جميع العباد إلا على الظلمة زجراً لهم عن الظلم وإيثار التواضع في المحافل والمجالس وترك الهزل والدعابة والرفق بالمتعلم والتأني بالمتعرج وإصلاح البليد بحسن الارشاد وترك الحرد عليه وترك الأنفة من قول لأدري وصرف الهمة إلى السائل وتفهم سؤاله وقبول الحجية والانقياد للحق بالرجوع إليه عن الهفوة ومنع المتعلم كل علم يضره وزجره عن أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى وصد المتعلم عن أن يشغل نفسه بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين وقرض عينه إصلاح ظاهره وباطنه بالتقوى ومواخاة نفسه أولاً بالتقوى ليقتنى المتعلم أولاً بأعماله ويستفيد ثانياً من أقواله. وأن كنت متعلماً فأدب المتعلم مع العالم أن يبدأ بالتحية والسلام وأن يقل بين يديه الكلام ولا يتكلم مالم يسأله أستاذه ولا يسأل أولاً مالم يستأذن ولا يقول في معارضة قوله قال فلان بخلاف ماقلت ولا يشير عليه بخلاف رأيه فيرى أنه أعلم بالصواب من أستاذه ولا يشاور جلسه في مجلسه ولا يلتفت إلى الجوانب بل يجلس مطرقاً ساكناً متأدباً كأنه في الصلاة ولا يكثر عليه عند مله وإذا قام قام له ولا يتعبه بكلامه وسؤاله ولا يسأله في طريقه إلى أن يبلغ إلى منزله ولا يسئ الظن به في أفعال ظاهرها منكر عنده فهو أعلم بأسراره وليذكر عند ذلك قول موسى للخضر عليهما السلام أخرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً وكونه مخطئاً في إنكاره اعتماداً على ظاهرة. وإن كان لك والدان فأدب الولد مع الوالدين أن يسمع كلامهما ويقوم لقيامهما ويثقل أمرهما ولا يمشی أمامهما ولا يرفع صوته فوق

أصواتهما ويلبى دعوتهما ويحرص على مرضاتهما ويخفف لهما الجناح ولا يمين عليهما
 يالبر لهما ولا بالقيام بأمرهما ولا ينظر إليهما شزراً ولا يقطب وجهه في وجوههما ولا
 يسافر إلا بإذنهما، وأعلم أن الناس بعد هؤلاء في حثك ثلاثة أضعاف إما أصدقاء وإما
 معارف وإما مجاهيل فإن بليت بالعوام المجهولين فأداب مجالسة العامة ترك الخوض
 في حديثهم وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم والتفاقل عما يجرى من سوء الفاظهم والاحتراز
 عن كثرة لقائهم والحاجة إليهم والتنبيه على منكراتهم باللفظ والنصح عند رجاء القبول
 منهم وأما الاخوان والأصدقاء فعليك فيهم وظيقتان «أحدهما» أن تطلب أولاً شروط
 الصحبة والصداقة فلا تواخ إلا من يصلح للأخوة والصداقة قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» فإذا طلبت رفيقا ليكون
 شريكك في التعلم وصاحبك في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال: الأولى العقل
 فلا خير في صحبة الأحقق فالإي الحوشة والقطيعة يرجع آخرها وأحسن أحواله أن
 يضرك وهو يريد أن ينفعك والعدو العاقل خير من الصديق الأحق. قال على رضى
 الله عنه: فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أردى حليما حين وأخاه
 يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه كجذو النعل بالنعل إذا ما النعل حاذاه، الشيء من
 الشيء، مقاييس وأشباه وللقلب على القلب دليل حين يلقاه الثانية حسن الخلق فلا
 تصحب من ساء خلقه وهو الذى لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة وقد جمعه علقمة
 العطاردى رحمه الله تعالى فى وصيته لابنه لما حضرته الوفاة فقال: يا بنى إذا أردت
 صحبة إنسان فاصحب من أذا خدمته صانك وإن صحبتته زانك وإن تعدت بك مؤنة
 مانك. اصحب من أذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها. وإن رأى منك
 سيئة سدها. اصحب من أذا قلت صدق قولك وإذا حاولت أمرا أعانك ونصرك وإن
 تنازعتما فى شئ أثرك، وقال على رضى الله عنه رجلا: إن أخاك الحق من كان معك،
 ت فبك شمله ليجمعك، الثالث الصلاح فلا تصحب^{٦٤} ومن إذا ريب الزمان صدعك، شئ
 فاسقا مصراً على معصية كبيرة لأن من يخاف الله لا يصير على معصية كبيرة ومن
 لا يخاف الله لا تؤمن غوائله بل يتغير بتغير الاعراض والأحوال قال الله تعالى لنبيه

(١) مفتاح كنز السنة.

صلى الله عليه وسلم «وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَّبِعْ هَوَاهُ»^(١) فاحذر صحبة الفاسق فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية وتوهن عليك أمرها ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة لا لفهم لها ولو رأوا خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه والغيبة أشد من ذلك، الرابعة ألا يكون حريصا على الدنيا فصحة الحريص على الدنيا سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والإقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري فمجالسة الحريص تزيد في حرصك ومجالسة الزاهد تزيد من زهدك، الخامسة الصدق فلا تصحب كذابا فأنتك منه على غرور فأنتك مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس والمساجد فعليك بأحد الأمرين إما العزلة والأفراد فإن فيها سلامتك وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم بأن تعلم إن الأخوة ثلاثة: أخ لآخرتك فلا تراعى فيه إلا الدين وأخ لدينك فلا تراعى فيه إلا الخلق الحسن وأخ تستأنس به فلا تراعى فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه. والناس ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والآخر مثله مثل الداء لا يحتاج العبد قد يبتلى به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته إلى الخلاص منه وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها وهو أن تشاهد من خباثت أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجنبه فالسعيد من وعظ بغيره والمؤمن مرآة المؤمن وقيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال ما أدبني أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته ولقد صدق صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم فلما اجتنب الناس مايكرهونه من غيرهم لكملة آدابهم واستغنوا عن المؤدبين «الوظيفة الثانية حقوق الصحة» فمهما انعقدت الشركة وانتظمت بينك وبين شريكك الصحة فعليك حقوق يوجبها عقد الصحة وفي القيام بها آداب وقد قال صلى الله عليه وسلم «مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى»^(٢) ودخل صلى الله عليه وسلم

(١) مفتاح كنوز السنة.

(٢) ورد في صحيح مسلم والبخارى.

أجمه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم وكان معه بعض أصحابه فأعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج فقال يارسول الله انك أحق منى بالمستقيم فقال صلى الله عليه وسلم «مَا مِنْ صَاحِبٍ يَصْحَبُ صَاحِبًا وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ إِلَّا سُئِلَ عَنْ صُحْبَتِهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَضَاعَهُ»^(١) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا أَصْطَحَبَ أَثْنَانِ قَطُّ إِلَّا وَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ»^(٢) وَأَدَابُ الصَّحْبَةِ إِلَّا. يشار بالمال فإن لم يكن هذا فبذل الفضل من المال عند الحاجة والإعانة بالنفس فى الحاجات على سبيل المبادرة من غير احواج إلى التماس وكتمان السر وستر العيوب والسكوت عن تبليغ مايسوء من مذمة الناس أياه وأبلاغ مايسره من ثناء الناس عليه وحسن الإصغاء عند الحديث وترك المماراة فيه وأن يدعو بأحد أسمائه إليه وأن يشئى عليه بما يعرف من محاسنه وأن يشكوه على صنيعه فى وجهه وأن يذب عنه فى غيبته إذا تعرض لعرضه كما يذب عن نفسه وأن ينصحه باللطف والتعويض إذا احتاج إليه وأن يعفو عن زلته وهفوته فلا يعتب عليه وأن يدعو له فى خلوته فى حياته وبعد مماته وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته وأن يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيئاً من حاجته ويروح قلبه من مهماته وأن يظهر الفرح بجميع ما يحتاج له من مسارة والحزن بما يناله من مكارهه وأن يضرر مثل ما يظهره فيكون صادقا فى وده سرا وعلانية ويبدأه بالسلام عند اقباله وأن يوسع له فى المجلس ويخرج له من مكانه وأن يشيعه عند قيامه وأن يصمت عند كلامه وعلى الجملة فيعامله بما يجب أن يعامل به فمن لا يحب لأخيه مثل ما يحب لنفسه فأخوته نفاق وهى عليه فى الدنيا والآخرة وبإل فهذا أدبك فى حق العوام المجهولين وفى حق الأصدقاء المؤاخين وأما القسم الثالث وهم المعارف فاحذر منهم فأنك لاترى الشر إلا بما تعرفه أما الصديق فيعينك وأما المجهول فلا يتعرض لك وإنما السر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم فأقلل من المعارف ما قدرت فاذا بليت بهم فى مدرسة أو جامع أو مسجد أو بلد أو سوق فيجب أن لاتستحقر منهم أحداً فأنك لاتدرى لعله خير منك ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم فى

(١) ورد فى سنن ابن ماجه.

(٢) ورد فى سنن ابن ماجه.

حال دنياهم فتهلك لأن الدنيا صغيرة عند الله صغير مافيهما ومهما ، عظم أهل الدنيا في قلبك فقد سقطت من عين الله تعالى وإياك أن تبذل لهم دينك لتنال به دنياهم فلم يفعل ذلك من أحد الأصغر في أعينهم ثم حرم ما عندهم وإن عادوك فلا تقابلهم بالعداوة فأنتك لاتطبق الصبر على مكافأتها فيذهب دينك في عداوتهم فيطول عناؤك معهم ولا تسكن إليهم في حال اكرامهم أياك وثنائهم عليك في وجهك وأظهارهم المودة لك فأنتك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة واحداً ولا تطمع أن يكونوا لك في العلن والسر واحداً ولاتتعجب ان ثلك وفي غيبتك ولا تغضب منه فأنتك إن أنصفت وجدت نفسك مثل ذلك حتى في أصدقائك وأقاربك بل في أستاذك ووالديك فأنتك تذكرهم في الغيبة بما لاتشافهم به فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم فأن الطامع في الأكثر خائب في المال وهو ذليل لامحالة في الحال فاذا سألت واحدا حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره ، وإن قصر فلا تعاتبه ولا تشكه فتصير عداوة وكن كالمؤمن يطلب المعاذير ولاتكن كالمناق يطلب العيوب وقل لعله قصر لعذر له لم أطلع عليه ولا تعظن أحداً منهم مالم تتوسم فيه أولاً مخايل القبول وإلا لم يستمع منك وصار خصما عليك فاذا أخطأوا في مسألة وكانوا يأنفون من التعليم من كل أحد فلا تعلمهم فانهم يستفيدون منك علما ويصبحون لك أعداء إلا اذا تعلق ذلك بمعصية يقارفونها عن جهل منهم فاذا ذكر الحق بلطف من غير غنف وأذا رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي حبيبك إليهم واذا رأيت منهم شراً فكلهم إلى الله تعالى واستعذ بالله من شرهم ولاتعاتبهم ولا تقل لهم لم لم تعرفوا حتى وأنا فلان بن فلان وأنا الفاضل في العلوم فأن ذلك من كلام الحمقى وأشد الناس حماقة من يزكى نفسه ويشنى عليها واعلم أن الله تعالى لا يسلطهم عليك إلا للذنوب سبق منك فاستغفرالله من ذنبك واعلم أن ذلك عقوبة من الله تعالى لك وكن فيما بينهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم نطوقاً بحاسنهم صموتا عن مساوئهم وأحذر مخالطة متفقهة الزمان لا سيما المشتغلين بالخلاف والجدال واحذر منهم فانهم يتربصون بك لحسدكم ريب المنون ويقطعون عليك بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون يحصون عليك عثراتك في عشرتهم حتى يجبهوك بها في حال غيظهم ومناظراتهم لا يقللون لك عشرة ولا يغفرون لك زلة ولا يسترون عليك

عورة يحاسبونك على النقرة والقطمير ويحسدونك على القليل والكثير ويحرضون عليك الأخوان بالنميمة والبلاغات والبهتان إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحمق ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب. هذا حكم ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم إلا من عصمه الله تعالى. فصحبتهم خسران ومعاشرتهم خذلان. هذا حكم من يظهر لك الصداقة فكيف من يجاهرك بالعداوة. قال القاضي ابن معروف رحمه الله: فاحذر عدوك مرة. واحذر صديقك ألف مرة.

فلربما انقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة وكذلك قيل في المعنى: عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصحاب فإن الداء أكثر ماتراه يكون من الطعام أو الشراب وكن كما قال هلال بن العلاء:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات إنى أحيى عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عنى بالتحيات وأظهر البشر للأتسان أبغضه كأنه قد ملا قلبى مسرات ولست أسلم ممن لست أعرفه فكيف أسلم من أهل المودات الناس داء دراء المحض تركهم وفى الجفاء لهم قطع الأخوات فسالم الناس تسلم من غوائلهم وكن حريصا على كسب المودات وخالق الناس واصبر ما بليت بهم أصم أبكم أعشى ذاتقيات وكن أيضا كما قال بعض الحكماء: الت صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، وكن فى جميع أمورك فى أوسطها فكلا طرفى الأمور ذميم كما قيل: عليك بأوساط الأمور فأنها طريق إلى نهج الصراط قويم ولاتك فيهما مفرطا أو مفرطا فأن كلا حال الأمور ذميم ولا تنظر فى عطفك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وادخال إصبعك فى أنفك وكثرة بصاقل وتنخمك وطرد الذباب عن جحك وكثرة التملط والتشاؤب فى وجوه الناس وفم الصلاة وغيرها. وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى الكلام المحسر ممن حدثك من غير اظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته واسكت عن المضاحاة والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما سخصك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تتبذل تبذل العبد وتوق كثيرة الكحل والإسراف

فى الدهن ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحداً على ظلم ولا تعلم أحداً من أهلِكَ
وولِدِكَ فضلاً عن غيرهم مقدار مالِك فأنهم إن رأوه قليلاً هنت عليهم وإن رأوه كثيراً لم
تبلغ قط رضاهم، واجفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك
ولا عبدك فيسقط وقارك وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وعجلتك وتفكر فى
حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا تكثر الإلتفات إلى ورائك ولا تبحث على ركبتيك
وإذا هدأ غضبك فتكلم، وإذا قربك السلطان فكن على حد السنان وأياك وصديق
العافية فإنه أعدى الأعداء لا تجعل مالِك أكرم من عرضك. وهذا القدر يافتى يكتفيك
من بداية الهداية فجرب بها نفسك فأنها ثلاثة أقسام: قسم آداب الطاعات وقسم فى
ترك المعاصى وقسم فى مخالطة الخلق وهى جامعة جميع معاملة العبد مع الخالق
والخلق فإن رأيته مناسبة لنفسك ورأيت قلبك مائلاً إليها راغباً فى العمل بها فأعلم
أنك عبد نور الله قلبك بالإيمان وشرح به صدرك، وتحقق أن لهذه البداية نهاية ووراءها
أسرار وأغوارا وعلوما ومكاشفات وقد أودعناها فى كتاب إحياء علوم الدين فاشتغل
بتحصيله فإن رأيت نفسك تستقل العمل بهذه الوظائف وتترك هذا الفن من العلم
وتقول لك نفسك أنى ينفعك هذا الفن فى محافل العلماء ومتى يقدمك هذا على
الاقتران والنظراء، وكيف يرفع منصبك فى مجالس الأمراء والوزراء ليوصلك إلى الصلة
والأزواق وولاية الأوقاف والقضاء فاعلم أن الشيطان قد أغواك وأنساك منقلبك ومثواك
فاطلب لك شيطاناً مثلك ليعلمك ما تظن أنه ينفعك ويوصلك إلى بغيتك، ثم اعلم أنه
قط لا يصفو لك الملك فى محلته فضلاً عن قربتك وبلدك ثم يفوتك الملك المقيم
والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. والحمد لله
أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم^(١).

(١) هذا آخر ما وجد من المخطوطة والمطبوع.

المصادر والمراجع

١- الأسانيد

- ١- القرآن الكريم
 - ٢- سنن الترمذى
 - ٣- سنن الدارقطنى
 - ٤- سنن ابن ماجة
 - ٥- سنن النسائى
 - ٦- صحيح البخارى
 - ٧- صحيح مسلم
 - ٨- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث
 - ٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن
- بيروت ١٩٨٤م
 - بيروت ١٩٨٠م
 - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى
 - الخلبى - القاهرة ١٩٥٢م
 - بيروت ١٩٨٥م
 - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى
 - الخلبى - القاهرة ١٩٥٢م
 - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى
 - الخلبى - القاهرة ١٩٥٢م
 - قنسيك
 - طبعة مصورة - تركيا - ١٩٤٥م
 - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى
 - دار الشعب - القاهرة ١٩٧٥م

٢- المصادر والمراجع المطبوعة

- ١- أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير
دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠م - ١٩٧٤م
- ٢- الإصابة فى أسماء الصحابة لابن حجر العسقلانى
تحقيق على محمد البجاوى
نهضة مصر - القاهرة ١٩٧٨م
- ٣- البداية والنهاية لابن كثير القرشى
القاهرة ١٣٤٨هـ
- ٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن للشوكانى
مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٤٧هـ
- ٥- تاج التراجم لابن قطوفا
بغداد - العراق ١٩٦٢م
- ٦- تاريخ الإسلام للذهبى
دار صادر - بيروت ١٩٨٥م - ١٩٨٨م
- ٧- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
الخانجى - القاهرة ١٣٤٩هـ
- ٨- تاريخ مكة للزرقى
بيروت - ١٩٨٥م
- ٩- تاريخ مكة والمدينة للعاقولى
تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد
مدبولى - القاهرة ١٩٨٩م
- ١٠- تبصير المنتبه لابن حجر العسقلانى
تحقيق على محمد البجاوى
القاهرة ١٩٦٦م

- ١١- تبیین کذب المفتري
لابن عساكر
نشره القدسی - دمشق ١٩٢٧م
- ١٢- تذكرة الحفاظ
للذهبي
تصحیح عبد الرحمن بن يحيى المعلمی
حیدرآباد الهند ١٣٧٤هـ
- ١٣- تهذيب الأسماء واللغات
للنواوی
مطبعة المنيرة - القاهرة
لابن حجر العسقلانی
حیدرآباد الهند ١٣٤٤هـ
- ١٤- تهذيب التهذيب
للسيوطی
طبع دار الكتب العربية الكبرى القاهرة - ١٣٣٠هـ
- ١٥- الجامع الصغير
للسيوطی
طبع دار الكتب العربية الكبرى القاهرة - ١٣٣٠هـ
- ١٦- الجامع الكبير
للسيوطی
طبع دار الكتب العربية الكبرى القاهرة - ١٣٣٠هـ
- ١٧- جهرة أنساب العرب
لابن حزم الأندلسی
تحقيق عبد السلام هارون
دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥م
- ١٨- حلية الأولياء
لأبى نعيم الأصبهانی
مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٥١هـ
- ١٩- الرسالة المستطرفة
للكتانی
دار الفكر - دمشق ١٩٦٤م
- ٢٠- سير أعلام النبلاء
للذهبي
بيروت - ١٩٨٥م
- ٢١- شذرات الذهب
لابن العماد الحنبلي
نشره القدسی - القاهرة ١٣٥٠هـ

- ٢٢- صفوة الصفوة
لابن الجوزي
الهند ١٣٥٥هـ
- ٢٣- طبقات ابن سعد
تحقيق إحسان عباس
دار صادر - بيروت ١٩٦٥م
- ٢٤- طبقات الشافعية
للسبكي
تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلوي
القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٣٨٧هـ
- ٢٥- طبقات الشيرازي
تحقيق إحسان عباس
بيروت ١٩٧٨م
- ٢٦- طبقات العبادي
تحقيق غوستا فيتسنام - لندن ١٩٦٤م
- ٢٧- طبقات القراء
لابن الجزري
برجستراسر ١٩٣٣م - ١٩٣٥م
- ٢٨- طبقات القراء
للذهبي
تحقيق محمد سيد جاد الحق
دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٧م
- ٢٩- طبقات المفسرين
للداودي
تحقيق على محمد عمر
طبعة وهبة - القاهرة ١٩٧٢م
- ٣٠- طبقات المفسرين
للسيوطي
طبعة وهبة - القاهرة ١٩٧٥م
- ٣١- طبقات ابن هداية الله
تحقيق عادل نويهض
بيروت ١٩٧٨م
- ٣٢- العبر
للذهبي
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد
الكويت ١٩٦٠م - ١٩٦٦م

- ٣٣- فوات الوفيات
لابن شاکر الکتبی
تحقیق محمد محیی الدین عبد الحمید
القاهرة ١٩٥١م
- ٣٤- القاموس
للفیروز ابادی
المطبعة المصرية ١٩٣٥م
- ٣٥- اللباب
لابن الاثیر
نشره القدسی - القاهرة ١٣٥٧هـ
- ٣٦- مرآة الجنان
لیافعی
حیدرآباد الدکن بالهند ١٣٣٨هـ
- ٣٧- میزان الاعتدال
للذہبی
تحقیق علی محمد البجاوی
الخلی - القاهرة ١٩٦٢م
- ٣٨- نکت الهمیان
الصفدی
تحقیق أحمد زکی
الجمالية بمصر ١٩١١م
- ٣٩- الوافی بالوفیات
للفصدی
استانبول ١٩٣١م
- ٤٠- وفیات الأعیان
لابن خلکان
تحقیق احسان عباس
بیروت ١٩٨٤م

١- المراجع

- ١- أحمد أمين
* ضحى الإسلام
النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦٢م
* ظهر الإسلام
النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦٦م
* فجر الإسلام
النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦٠م
العقيدة والشرعية فى الإسلام
ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى
وعلى حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد
الحق.
دار الكاتب المصرى - القاهرة
أخوان الصفا
المكتبة التجارية الكبرى ١٩٢٨م
تحقيق كتاب «معيان العلم»
* نشر دار المعارف - القاهرة ١٩٦١م
تحقيق كتاب
* تهافت الفلاسفة
دار المعارف - القاهرة ١٩٥٥م
مذاهب فلاسفة المشرق
* دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨م
* الفلسفة الإسلامية
دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨م
* النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد
دارالمعارف - القاهرة ١٩٩٠م
- ٢- جولد تسيهر
- ٣- خير الدين الزركلى
- ٤- سليمان دنيا
- ٥- محمد عاطف العراقى

فهرس الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع
٣ - ٢٤	مقدمة المحقق
٢٥ - ٢٧	مقدمة الغزالي
٢٨	القسم الأول الطاعات
٢٩	فصل فى آداب الاستيقاظ من النوم
٣٠	باب آداب دخول الخلاء
٣١ - ٣٣	آداب الوضوء
٣٣ - ٣٤	آداب الغسل والتيمم
٣٤ - ٣٨	آداب دخول وخروج إلى المسجد
٣٨ - ٤٠	آداب مابعد طلوع الشمس إلى الزوال
٤١ - ٤٣	آداب الاستعداد لسائر الصلوات
٤٣ - ٤٤	آداب النوم
٤٤ - ٤٧	آداب الصوم
٤٧ - ٤٨	آداب الإمامة والقدوة
٤٨ - ٥٠	آداب الجمعة
٥٠ - ٥١	آداب الصيام
٥١ - ٦٣	القسم الثانى فى القول فى اجتناب المعاصى
٦٣ - ٧٠	القول فى آداب الصحبة والمعاشرة
٧١ - ٧٨	المصادر والمراجع

التنفيذ الطباعي

شركة

سويدان وأبو ذلمر

بيروت - ص ب: ١١/٩٣٥٤

من هذه السلسلة

- اسرار الحج ... للغزالي
- بداية الهداية ... للغزالي
- معارج القديس ... للغزالي
- مفتحة القاصدين ... للغزالي
- مفتاح الفلاح ... لابن عطاء
- التلويز في اسقاط التدبير ... لابن عطاء
- لطائف الدين ... لابن عطاء
- العجالة ... لابن العربي
- اصطلاحات الصوفية ... لابن العربي
- الوصايا ... للإمام الرفاعي
- مشقة الأنوار ... للإمام الرفاعي
- الدرة البيضاء ... لابن العربي

مكتبة مدبولي

القاهرة